مجموعة قصص صحفية



سلامٌ على من مضوا...
وللحلم بقيّة



بديل / المركز الفلسطيني
لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين

سلامٌ على من مضوا . . . وللحلم بقيّة
مجموعة قصص صحفية

الطبعة الأولى : شباط ٢٠١٠

الرقم المعياري الدولي : ٤-١٩-٣٣٩-٩٩٥٠-٩٧٨

الافكار والمضامين الواردة في هذه القصص تعبر عن وجهة نظر أصحابها ،
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز بديل .

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز بديل

صورة الغلاف : شقائق النعمان "الحنّون" من الأزهار البريّة الفلسطينية ، بيت لحم ٢٠٠٨ (تصوير : محمد العيسة)

بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين
بيت لحم ، فلسطين .
ص . ب . ٧٢٨
هاتف : ٠٠٩٧٢٢٢٧٧٧٠٨٦
تلفاكس : ٠٠٩٧٢٢٢٧٤٧٣٤٦
بريد ألكتروني : info@badil . org
صفحة الانترنت : www . badil . org

المحتويات

حول جائزة العودة السنوية*

أطلق بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين رسمياً مشروع جائزة العودة السنوية في كانون أول من العام ٢٠٠٦، وذلك بعد سلسلة طويلة من المشاورات الداخلية ومشاورات مع العديد من المختصين وشركاء المركز. والفكرة الأساسية من وراء هذا المشروع، تهدف إلى تفعيل وإطلاق الطاقات الكامنة بين عموم أبناء الشعب الفلسطيني، وتشكيل منبر لكل المُبدعين والمُبدعات من الفلسطينيين المؤمنين بحقوقهم وعدالة قضيتهم، والمصممين على الانتصار لشعبهم، وكذلك لتكون ملتقى وطنياً جامعاً يجمع الفلسطينيين من كل أرجاء العالم، من فلسطين التاريخية والمنافي، حول حق العودة الى الديار الأصلية.

شملت جائزة العودة للعام ٢٠٠٧ خمسة حقول هي: أدب الأطفال، والبوستر، والورقة البحثية، والتاريخ الشفوي، والأفلام القصيرة، وأضيف إليها في العام ٢٠٠٨ حقلاً جديداً هو القصة الصحفية المكتوبة. وقد لقي هذا الحقل في سنته الأولى نجاحاً مميزاً، الأمر الذي شجّع مركز بديل على تثبيت هذا الحقل ضمن المسابقات للأعوام التالية.

وللتأكيد على الشفافية والمصداقية، فقد قرر مركز بديل الاستفادة من خبرات نخبة كبيرة من خيرة أبناء الشعب الفلسطيني المختصين، من كتاب، وفنانين، وصحفيين، ومخرجين وباحثين وأساتذة جامعات، ليوجهوا مشروع جائزة العودة، وليشكلوا لجان تحكيم مستقلة عن مركز بديل تتولى مهمة إصدار أحكامها بصورة حيادية. وقد وضعت لجان التحكيم فعلاً معايير علمية وموضوعية لتقييم المشاركات وإصدار أحكامها النهائية. وقد تألفت لجنة التحكيم لحقل القصة الصحفية المكتوبة من الأساتذة: عبدالناصر النجار، شيرين أبو عاقلة، قاسم خطيب، ناصر اللحام، نجيب فرّاج، خليل شاهين.

---

*للمزيد من المعلومات حول جائزة العودة، أنظر موقع مركز بديل على شبكة الانترنت: www.badil.org

حول هذا الإصدار

يجيئ هذا الإصدار الذي يحمل عنوان: «**سلامٌ على من مضوا . . . وللحلم بقية**»، ليضم مجموعة القصص الصحفية الفائزة بجائزة العودة للعام ٢٠٠٩. وتأتي القصص الثلاث الأولى، مرتّبة بحسب المراتب: الأولى، والتي احتلتها قصة منتصر حمدان وحملت عنوان: «**بين تناقص المساحة ونموهم الطبيعي، اللاجئون: هجروا بضغط السلاح . . . وضيق المكان يعزز تمسكهم بالعودة**»، والمرتبة الثانية احتلتها بالتساوي قصتان: قصة لمعتز عز الدين وحملت عنوان: «**شتلة عنب، ودالية، ومخيم**»، وقصة لمها التميمي وحملت عنوان: «**ساعة أمي**». أما المرتبة الثالثة فقد تم حذفها بحسب توصيات لجنة التحكيم. ويشار هنا انه ليس لترتيب القصص السبع التالية أية دلالة على مرتبتها، فهي جميعاً حائزة على جوائز تقديرية ولا مفاضلة بينها بحسب لجنة التحكيم الخاصة بالقصص الصحفية.

ويصدر بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين هذه القصص التزاما ووفاء بتعهداته المبينة في شروط جائزة العودة الخاصة بحقل القصة الصحفية، وتقديرا لجهود الكتاب الذين أسهموا بمشاركاتهم في اغناء ثقافة ومسيرة العودة. ويشار هنا إلى أن دور مركز بديل قد اقتصر على عملية التحرير اللغوية والفنية للقصص ولم يتدخل لا في المضامين ولا الأفكار. هذا وقد كان مركز بديل قد أصدر مجموعة القصص الصحفية الفائزة في جائزة العودة للعام ٢٠٠٨ ضمن كتاب حمل عنوان: «**قرنفل الذكرى على طريق العودة**».

ويجيئ إصدار مجموعة القصص هذه استكمالاً للهدف من وراء طرح هذا الحقل ضمن حقول جائزة العودة السنوية. لقد كان الهدف من وراء طرح هذا الحقل إبراز دور الصحفيين وأهميته في معالجة قضايا اللجوء والتهجير لما لكتاباتهم من اثر وتأثير على تشكيل الوعي العام، وخصوصا لدى الأجيال الشابة من أبناء فلسطين. وغني عن القول أن القلم المنتمي لقضية نبيلة وعادلة هو ضمان إبقائها حية في كل المحافل، وعبر كل المراحل، وعلى كل المستويات.

عن القصص الفائزة

في العام ألفين وثمانية، دعيت لأكون أحد أعضاء لجنة التحكيم التي اختارها مركز بديل لاختيار الفائزين في جائزة العودة للقصة الصحفية. المتقدمون للجائزة طلب اليهم تقديم مشاركاتهم في اطار قصص تحمل عناصر القصة الصحفية التي جاءت أحداثها من الواقع، وهي فكرة جاءت بالاساس لتشجيع الصحفيين والاعلاميين على الكتابة في مواضيع تتعلق بقضية اللاجئين والعودة، ومن شأنها ان تحقق اكثر من هدف، فهي تساعد في ابقاء القضية حية في الذاكرة الفلسطينية، وتساعد على تمسك الأجيال الشابة بتلك القضية.

ما من شك ان قضية اللاجئين قد تكون الأصعب في مفاوضات الوضع النهائي، وإلا فلماذا تتمسك القيادة والفصائل والأفراد بحق العودة إذا كانت قضية اللاجئين مجرد شعار؟ ولِمَ التمسك بالحق إذا ما بات هناك بالنسبة لعدد كبير من اولئك وطن يحمل اسما جديدا ومدينة اخرى تتوفر فيها كل سبل الراحة؟ لِمَ هي قضية ما زالت حية في وجدان كل فلسطيني؟

في العام ألفين وتسعة، تسلمت لجنة التحكيم ستا وخمسين قصة صحفية من الضفة الغربية وقطاع غزة ومن داخل الخط الأخضر؛ إضافة إلى مجموعة من المشاركات من كل من الاردن ولبنان. تم اختيار عشر منها كقصص فازت بجوائز القصة الصحفية.

تهزك مجموعة القصص عندما تقرؤها، تعيدك إلى زمن لا يمكن ان يكون مجرد ذكرى؛ بل إلى حياة توقفت عند مشهد لا بد أن يحين، وقت تكتمل أحداثه ليس في المنافي ولكن على ارض قرى تبدلت اسماؤها وسكانها؛ لكن أصحابها ما زالوا أحياء يتذكرون.

لحظة لم تغب أبدا عن الأدب الفلسطيني عموما؛ في إحدى القصص يتوقف الزمن عند اللحظة التي أرَّختها ساعة الأمّ لدى الخروج من البيت، في «ساعة أمي» ثبتت الذكريات عند مرحلة الطفولة في حيفا.

في قصة أخرى ثبتت الذكريات عند تلك اللحظة التي جاءت تنذر بالتغيير القادم، بالنكبة القادمة، بالتهجير، كتلك اللحظة التي أعلنت عنها أصوات الطائرات والمدافع وطلقات الرصاص، كأنها لحظة جاءت فجائية، حينها كان كل شيء يبدو طبيعيا في حياة كثير من الفلسطينيين، لم يتأهبوا لها، لم يحزموا حقائبهم، بل كانوا يعيشون لحظتهم، يجهزون طعامهم، لكن الحياة توقفت في لحظة انطلقت فيها أصوات الرصاص وهو ما كان في صفورية القريبة من الناصرة كما جاء في «حلم من تراب».

عند آخرين، توقفت الحياة عند آخر طبق أعدته صاحبة البيت ولم يكن لأبنائها أن يتذوقوه، ظل ساخنا في الذاكرة لم يبرد او تنطفئ ناره بعد. في «التهجير بعيون بدوية»، تعلقت الذكرى بالثوب الذي ارتدته صبحة ابنة الأحد عشر ربيعا.

بعدها كانت تبدأ رحلات العذاب التي جمعت مصير الفلسطينيين، وقسمت العائلات. رحلة من اليأس والعوز والفقر، رحلة الانتقال من أرضك إلى أرض غيرك، من بلد كنت أنت السيد فيه إلى آخر صرت فيه زائرا ثقيلا في كثير من الأحيان، وهو مشهد آخر يجمع ايضا بين مختلف القصص.

تتابع القصص كأنها رواية واحدة بفصولها المتعددة، لتروي قصصا عن المنفى، عن بيوت المخيمات... تتوالى السنون وتأتي الأيام بأخبار عن أحبة تزوجوا وأنجبوا، وآخرين توفوا وقد أعياهم الانتظار، بعيدا عن أفراد عائلاتهم، دفنوا غرباء.

تراودك الأفكار مرارا؛ هل سيأتي يوم تتحرر فيه من ضيق اللجوء وضيق المخيم؟ هل تنتظر الحل الموعود او تبحث بنفسك عن حلول أسرع، عن بيوت أوسع لا تضيق مساحتها بأبنائها؟ تلك كانت فرحة «علي خلف» في قصة «بين ضيق المساحة ونموهم الطبيعي»؛ عندما غادر منزله الصغير وانتقل إلى منزل أكثر رحابة. وهل مغادرة «بيت المخيم» هو تخل بطريقة او بأخرى عن حقك بالعودة الى قريتك؟

عندما تتجاوز ذكرى النكبة الستين عاما ربما ينتاب الكثيرين الشكوك حول التصاق تلك الذكرى بأجيال تعاقبت من الفلسطينيين، أجيال سمعت عن حيفا ولم تسكنها، وأخرى تتذكر كلمات الأباء عن بيارات يافا ولم تتذوق ثمارها، أبناء ورثوا عن أجدادهم أسماء قرى ولدوا وعاشوا وهجروا عنها، وصارت أثرا بعد عين. لكن إلى أي مدى يمكن ان تظل الذكرى حاضرة في حياة من صار المخيم بيته لعقود من الزمن، أو ذاك الذي استبدل الخيمة وبيت المخيم بآخر في أحياء المدن العربية أو حتى الأوروبية؟

تمضي الأحداث ويستمر الانتظار، تسلم الحاجة أم محمد الروح في قصة «تذكار من الاثمد والدمع الأسود» وهي تنتظر العودة الى الفراديس، لم تحقق حلمها، لكن آخرين لم يسلموا الروح؛ بل صاروا شهودا على نكبة اخرى. في غزة، كان الحاج ابو محمد أبو طه، الرجل الثمانيني الذي هجر أولا عن بيته في يافا، شاهدا على نكبة جديدة. هذه المرة رفض أن «يهاجر» لينجو بروحه؛ فلا قيمة للحياة مع ذل اللجوء، وظل جالسا هناك على انقاض بيته في غزة كما جاء في قصة «سجل ذاك هو الفلسطيني».
لم يكن كاتبو تلك القصص بمعزل عن أحداثها، منهم من روى قصة أحد أفراد الأسرة، ومنهم من روى قصة اخترقته بطريقة ما، ولكن لم يكن أحدا منهم محايدا في روايته، الكل قد انحاز لفكرة ما زالت تطارد كل فلسطيني، لاجئ، عجوز وشاب.

في جميع تلك القصص لم تكتمل فصول النهاية بعد، ما زال هناك من هو ينتظر، مات ودفن كثير من اللاجئين، بقي أبناؤهم وأحفادهم، دفنوا الأجداد ولم يدفنوا معهم الحلم الذي بقي حياً.

بقلم الإعلامية شيرين أبو عاقلة

أم غازي تجلس مع عدد من أحفادها أمام بيتها في مخيم الأمعري، رام الله، ٢٠٠٨ (المصدر : www.flickr.com)



بين تناقص المساحة ونموهم الطبيعي
اللاجئون: هجروا بضغط السلاح... وضيق المكان يعزز تمسكهم بالعودة*

بقلم: منتصر حمدان**

" شعرت بسعادة غامرة لا تصدق عندما انتقلت للعيش إلى منزلنا الجديد خارج المخيم " ، هكذا كان المواطن علي خلف يعبر عن فرحته الطفولية التي شعر بها قبل 39 عاماً، بسبب ما وصفه بـ " الانتقال النوعي " بمغادرة عيشة المخيم إلى العيش في منزل والده الجديد، الذي أقامه على أرض صغيرة اشتراها في أطراف مخيم الامعري للاجئين ليعيش فيها مع أسرته.

فرحة خلف التي شعر بها في تلك الفترة، تحولت اليوم إلى عبء جديد يكبس على أنفاسه حينما يفكر بمستقبل أولاده الذين يضيق عليهم المكان في منزل مكون من غرفتين ومطبخ وحمام صغيرين.

ويقول ببساطته المعتادة: " الأرض تضيق علينا ولم تعد تتسع لأصحابها " ، في إشارة منه إلى ضيق المكان الذي يعيش فيه مع والده وأمه وبقية إخوته وأولادهم الذين يصل عددهم اليوم إلى 30 شخصاً.

وتابع بنوع من الاضطراب والقلق وهو ينظر إلى زوجته: " من يتزوج من الأولاد عليه أن يرتب

---

* القصة الصحفية الفائزة بالمرتبة الأولى في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠٠٩ – حقل القصة الصحفية .

** منتصر حمدان : صحافي فلسطيني ومراسل لعدد من الصحف المحلية والعربية والأجنبية ، حاصل على جائزة أفضل تحقيق صحفي حول مشاركة المرأة الفلسطينية في الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٥ ، وجائزة النزاهة والشفافية لمواجهة الفساد لعام ٢٠٠٦ ، والجائزة الثالثة في مسابقة مركز الكوثر التونسي لعام ٢٠٠٨ . مقيم في رام الله – فلسطين .

وضعه بنفسه بشراء شقه خاصة لأنه لا يوجد لدينا إمكانيات لمساعدته"، موضحا أن والده بنى منزله في بداية الأمر من الطوب، وكدح في المحاجر حتى تمكن من إلباسه الحجر.

وأضاف: "عندما غادرنا المخيم إلى منزلنا الجديد، كنت أعيش فيه مع خمسة من الإخوة إضافة إلى أبي وأمي، لكن الوضع الآن مختلف، فالمنزل الصغير أصبح أربعة منازل يعيش فيها إخوتي مع أسرهم"، موضحا أن اغلب اللاجئين في المخيمات يهربون من ضيق مساحة الأرض إلى السماء في إشارة إلى البناء العامودي المنتشر في المخيمات.

وتصل مساحة تلك الأرض التي شراها والداه، بعد أن تشاركا في دفع ثمنها مع شقيقه صالح الذي يعيش حاليا في مدينة الزرقاء في الأردن، إلى دونم و750 مترا، حيث يحرص الحاج احمد خلف على استغلال نصف هذه المساحة لاستخدام أولاده ويبقي القسم الآخر خاليا على أمل عودة شقيقه صالح وأولاده للعيش فيها.

ومع النمو الطبيعي لأعداد أسرة الحاج احمد خلف، التي جرى تهجيرها من بلدة لفتا قضاء القدس عام 1948، يضطر بعض أولاده للهروب من ضغط مساحة المكان نحو استئجار شقق سكنية لهم في أحياء مدينة البيرة، وهذا ما حدث مع احد أولاده: "عماد" 42 عاما الذي لديه 5 أولاد.

ويعلق علي خلف على ذلك قائلا: "61 عاماً ونحن ننتظر، ولكن المساحة تقل وعددنا يزيد، وكلي أمل أن ينجح ابني علاء في شراء شقة له في إحدى ضواحي رام الله"، موضحا أن له اثنين من الأبناء وابنة واحدة وأصغرهم احمد 14 عاما.

ورغم محاولات التأقلم مع المكان، إلا أن علي لا يخفي حالة الضيق التي يشعر بها حينما يتذكر أن جده "محمود خلف" كان يصنف من الإقطاعيين المالكين لأراض شاسعة كانت تبدأ من لفتا حتى حي الشيخ جراح داخل القدس المحتلة، إضافة إلى امتلاكه 75 فدّاناً في مدينة اللد، مؤكدا أن والده يملك الوثائق التي تؤكد ملكيته لهذه الأراضي.

وقال علي: "انه أمر صعب أن تكون مالكا لكل هذه الأراضي وتعيش في مساحة صغيرة لا تتسع

حتى لأولادك"، موضحا انه اجبر على اقتسام المنزل بينه وبين والده وأمه لحل مشكلة نقص المساحة المتاحة في المنزل بسبب بدء ازدياد عدد أسرته. وتابع: "مع مرور الوقت قد لا يقبل أولاد أولادنا بان يعيشوا كما عشنا في هذا المكان".

وقصة عائلة خلف هي واحدة من بين آلاف القصص المماثلة التي يعيشها اللاجئون في المخيمات الفلسطينية التي أقيمت في أعقاب النكبة التي حلت بالفلسطينيين عام 1948، على مساحات صغيرة وتكتظ حاليا بآلاف المواطنين الذين تكاثروا طبيعيا في حين بقيت المساحة ذاتها، الأمر الذي يدفع الأجيال الشابة لمغادرة المخيم والعيش في بيوت مستأجرة أو شراء أراض يقيمون عليها منازلهم بعيدا عن ضيق الحياة في المخيمات التي تنعدم فيها الخصوصية الشخصية بسبب اكتظاظ النفوس والمباني.

وحسب معدلات النمو الطبيعي للاجئين المسجلين رسميا، والتي نشرها مركز شمل المتخصص في قضايا اللاجئين، واستنادا إلى وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، فان معدل النمو وصل عام 2000 إلى (3.1%)، في حين أن معدلات الكثافة السكانية للاجئين والمهجرين (عدد الأفراد في الغرفة الواحدة) وصلت في عام 2001 في مخيمات الضفة إلى (2.5)، و(2.8) في قطاع غزة في العام نفسه.

ويعلق باحث علم الاجتماع، وليد بدوي، الذي تعود أصوله إلى مخيم بلاطة للاجئين في محافظة نابلس، على ذلك قائلا: "إن تناقص المساحة وزيادة السكان في المخيمات حقيقة ثابتة"، مشيرا إلى وجود ما وصفه بالحراك الاجتماعي والحراك الجغرافي في المخيمات.

ويفسر بدوي ما قصده بالحراك الاجتماعي بالقول: "انه بسبب حصول العديد من أبناء المخيمات على رواتب جيدة جراء توليهم وظائف في الإدارات العليا في مؤسسات السلطة الوطنية أدى إلى حدوث الحراك الاجتماعي عبر انتقالهم من الطبقة الفقيرة داخل المخيمات إلى الطبقة الوسطى وهذا يمكن وصفه بالحراك الاجتماعي العامودي".

أما الحراك الجغرافي كما يصفه بدوي، فانه ناتج عن انتقال تلك الفئة للعيش في ضواحي وأحياء

المدن بعد مغادرة المخيم؛ حيث رافق ذلك شراء شقق سكنية أو بيوت وامتلاك سيارات وباتوا قادرين على الانخراط في الحياة المدنية بعيدا عن حياة المخيم الذي بات يمثل عامل طرد على الصُّعِد: النفسية والاجتماعية والسكنية والتربوية مع حرصه على عدم توجيه الاهانة لهم.

ويقول بدوي: "المخيم باق ببقاء الفقراء فيه"، مشيرا إلى أن اغلب اللاجئين في المخيمات بدأوا في السنوات الأخيرة بشراء الأراضي المحيطة بالمخيمات للتغلب على مشاكل السكن؛ وهذا ما حدث في مخيم بلاطة ومخيم الجلزون في رام الله بصورة واضحة".

ووفقاً للإحصائيات التي جمعها مركز بديل من أكثر من جهة رسمية فان عدد اللاجئين عام 2000 وصل إلى (5.511.541) لاجئاً منهم (3.973.360)*** لاجئاً مسجلاً داخل فلسطين وخارجها، الأمر الذي قد يؤدي إلى حدوث انفجارات سكنية داخل المخيمات؛ خاصة وان تلك المخيمات تتعرض لضغوط اجتماعية وسياسية واقتصادية ونفسية تصب جميعها في الضغط على سكانها.

ويصف علي خلف، ذلك قائلا: "نعيش من ضغط إلى ضغط ولا يبدو أن هناك انفراج وحل لقضيتنا"، في حين يقول والده الحاج احمد خلف (85) عاما، وهو يحمل في يده مجموعة من الوثائق التي تثبت ملكيته لأرضه: "والله لو يصح لي العودة الآن إلى لفتا ما بقيت هنا لحظة واحدة".

وتصل تقديرات الأراضي التي تعود ملكيتها للاجئين الفلسطينيين التي جرت مصادرتها من قبل دولة الاحتلال "إسرائيل"، منذ بداية النكبة وحتى عام 2002 إلى (22.036.000) دونم، في حين يعيشون الآن في مساحات ضيقة جدا داخل المخيمات التي تحشرهم وتضغطهم نحو التشبث بحلم العودة الذي يمثل لهم الخلاص من واقع فرض عليهم بقوة السلاح ويرفضون التأقلم أو الذوبان فيه.

*** إحصاءات مركز بديل لعام ٢٠٠٨-٢٠٠٩ تشير إلى أن تعداد المهجرين واللاجئين الفلسطينيين بلغ ٧,١ مليون، وان عدد المسجلين منهم لدى الانروا ٤,٧ مليون. للتفاصيل انظر: اللاجئون والمهجرون الفلسطينيون: المسح الشامل لعام ٢٠٠٨ -٢٠٠٩، إصدار مركز بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر وحقوق المواطنة.

وفي الوقت الذي تدافع فيه دولة الاحتلال باستماتة أمام المجتمع الدولي ومؤسساته عما تصفه بالنمو الطبيعي "للمستوطنات اليهودية"، لتوسيعها بمصادرة المزيد من الأراضي، يجلس علي خلف، بالقرب من نافذة منزله المطلة على مستوطنة "بسجوت" قبالة مخيم الامعري، والأمل يحدوه في مستقبل أفضل لأولاده بعد أن نكل الزمن به وبأجداده اللاجئين الذين ماتوا وحلم العودة لأراضيهم لا يفارقهم.

دالية عنب تتسلق الطابق الثالث، مخيم طولكرم (تصوير: مركز بديل)



شتلة عنب، ودالية، ومخيم*

بقلم: حسام عزّ الدين**

تمنى الفتى سامر الكسبة (١٥ عام) أن يزرع شتلة عنب، جلبها من صديق له، في علبة بلاستيكية، بجانب منزله في مخيم قلنديا، لكنه استشهد في العام ٢٠٠٢، خلال مواجهات مع قوات الاحتلال على مدخل المخيم، وبقيت الشتلة.

استشهد سامر بعد أربعين يوما من استشهاد شقيقه ياسر (١١ عاما) في نفس المكان، وأصرت جدته على زراعة شتلة العنب التي تمنى سامر زرعها في فناء المنزل كي يستظل بفيها.

يقول ثائر (٢٦ عاما) شقيق سامر الأكبر، بأنه لم يكن بالإمكان زراعة شتلة العنب في فناء المنزل، لأنه لا يوجد مساحة ترابية وسط المساحات الشاسعة من الاسمنت «التي تلف حياتنا داخل المخيم من كل صوب».

يتكون منزل أسرة سامر، التي يعود أصلها إلى بلدة برفيلية القريبة من الرملة، من ثلاثة طوابق؛ يسكنها احد عشر نفرا. ويتلاصق المنزل، مثله مثل منازل كافة اللاجئين في المخيمات، مع منازل أخرى قريبة، ولا تظهر الأتربة أصلا لزراعة الشتلة فيها.

---

* القصة الصحفية الفائزة بالمرتبة الثانية (بالتساوي مع قصة "ساعة أمي") في مسابقة جائزة العودة السنوية للعام ٢٠٠٩ في حقل القصة الصحفية.

** حسام عز الدين حمدان: صحافي فلسطيني، مراسل جريدة الأيام الفلسطينية، دراسات عليا في علم الاجتماع (جامعة بير زيت)، ودبلوم في الإعلام (معهد الإعلام – ألمانيا)، حاصل على جائزة نزاهة الإعلام لعام ٢٠٠٧. مقيم في رام الله – فلسطين.

قال ثائر:

وسط إصرار الجدة، قمنا أولاً بهدم جزء من المنزل، وهذا الجزء كان مخصصا كصالة ضيوف، وجلبنا أتربة ووضعناها على مساحة متر مربع وسط الجزء الذي تم هدمه، وزرعنا فيها النبتة التي أصحبت تنمو الآن، لكنها لم تثمر بعد.

باتت الأسرة تروي شتلة العنب بشكل يومي، على أمل أن تكبر، وتظلل بفيها ذكرى سامر وثائر، لكن الشتلة لا تنمو بشكل طبيعي، كما يقول ثائر. وعللت الأسرة سبب النمو غير الطبيعي للشتلة في «أن الأتربة الجوفية للأرض المقام عليها المخيم، متأثرة بفعل مياه المجاري خلال سنوات النكبة الطوال، حيث أن كافة المنازل داخل المخيم تحتها حفر امتصاصية».

قال ثائر:

لا يوجد أي مساحة ترابية حول المنزل، وما يوجد هو اسمنت فقط، ونحن قمنا بزراعة الشتلة ونواصل الاهتمام بها لإبقائها على قيد الحياة، فقط لأنها تحمل ذكرى سامر.

لم تكن حال منزل عائلة الكسبة كما هي عليه الآن حينما قدموا إلى المخيم بعد سنوات قليلة على النكبة، حيث تمكنت الجدة «فاطمة»، كما يقول ثائر، من زراعة شجرتي تين وتوت، وهو نوع الثمر الذي كانت تشتهر به بلدة برفيلية، إضافة إلى الصبار؛ إلا انه وبسبب امتداد الأسرة وتوسعها خلال سنوات النكبة الطوال، كان لزاما عليهم البناء والتلاصق للبقاء داخل المخيم إصرارا على التمسك بحق العودة.

تقول عائلة الكسبة عن الجد الأكبر للعائلة، بأنه كان حريصا على الذهاب إلى بلدته الأصلية برفيلية المهدّمة، ليأتي كلما ذهب إلى هناك بثمر الصبار والتين والرمان إلى أحفاده وأبنائه في مخيم قلنديا.

وفي حين أن عائلة الكسبة تصارع من اجل توفير مساحة ضيقة من الأتربة لزراعة شتلة العنب، يتذكر أفراد العائلة، من الطاعنين، بحسرة قريتهم برفيلية التي طردوا منها أيام النكبة في العام ١٩٤٨.

تبلغ مساحة أراضي برفيلية ٧،١٣٤ دونماً، وتزرع أراضيها بالأشجار المثمرة كالزيتون والليمون والعنب والتين. وقد غرست مساحة ١٩١ دونماً بأشجار الزيتون. وتزرع الحبوب والخضار الشتوية والصيفية أيضاً، ومعظمها يعتمد على مياه الأمطار الشتوية للزراعة.

يقول ثائر:
روى لي والدي عن الأشجار التي كانت تحيط بمنزل العائلة في بلدتنا برفيلية، وكذلك جدي الذي كان دائم الحديث عن أشجار الزيتون والعنب والتين في القرية، أنا لم أرَ قريتي برفيلية، لكن من الأحاديث التي سمعتها عنها، أُصاب بالحسرة وأحس بالظلم كلما نظرت إلى شتلة العنب التي تصارع الحياة وسط ركام الباطون داخل المخيم.

ويضيف:
لا انظر للقضية بشكل سياسي، وإنما انظر إليها بواقع إنساني، فهل هذه عدالة بشرية بان يأتي الغرباء ويسكنون أفسح المناطق، أما نحن أصحاب الأرض فلا نجد إلا الباطون ومياه المجاري للعيش وسطها سعيا للحياة.

وان كانت عائلة الكسبة في مخيم قلنديا تمكنت من تجهيز مساحة لا تتعد المتر مربع الواحد لزراعة شتلة العنب في فناء المنزل المفتوح بعد أن هدمت جزءا من منزلها، إلا أن عائلات أخرى في مخيم الامعري القريب، لم تتمكن من هدم أي جزء من المنزل، لكنها وجدت طريقة أخرى لزراعة شتلة العنب علّ وعسى أن تصبح دالية.

لقد بحث جمال الرومي (٥١ عاما) حول منزله الواقع في مخيم الامعري، عن مساحة ترابية، ليس لإضافة بناء جديد يضم أسرته المتكاثرة؛ بل ليزرع دالية عنب شبيهة بتلك التي كانت مزروعة أمام منزلهم في اللد، والتي اخبره والده عنها مرارا وتكرارا. لن يكون بإمكان أي إنسان، حينما يقف على سطح أي منزل من منازل مخيم الامعري العثور بعينيه على أي مساحة ترابية مهما كانت صغيرة، ولا يظهر سوى كتل الاسمنت والباطون المسلح المكونة للمنازل المتلاصقة.

تكررت الفكرة في رأس الرومي أكثر من مرة، فشجرة العنب ستكون جميلة أمام المنزل، يستظل بفيها

ويأكل من ثمارها مثل كروم العنب المنتشرة في القرى المحيطة بالمدينة، والتي يراها الرومي كلما ذهب لتدريس اللغة العربية في إحدى المدارس الحكومية غربي رام الله. لكن المشكلة هي ذاتها التي كانت تواجه الرومي كلما فكر مجددا؛ «لا يوجد مساحة ترابية حول المنزل»، قال الرومي وهو يشير إلى حالة التلاصق ما بين منزله وباقي المنازل في المخيم.

لم ييأس الرومي؛ «فطالما انه لا يوجد أماكن ترابية حول المنزل، فلماذا لا نجلب التراب فوق سطح المنزل»؟ وهذا ما كان، وتمكن الرومي من زراعة دالية العنب، ليس أمام فناء المنزل، بل على السطح، حيث جلب أتربة ووضعها في وعاء بلاستيكي ومن ثم زرع فيها شتلة عنب، وبات يسقيها كل يوم، هو وأسرته في انتظار أن تنمو الشتلة وتصبح دالية يستظلون بها فوق سطح المنزل.

وان كان الرومي يحلم بذلك اليوم الذي تنمو فيه داليته وتظلل سطح منزله ليجلس هو وعائلته يستظلون بها ويأكلون ثمارها، إلا أن هذا اليوم قد يكون بعيدا، حسب ما يقول الرومي، لأنه بات متأكدا بان الدالية بحاجة إلى ارض ترابية واسعة ومشبعة كي تغذي الدالية، وهو ما يفتقره المخيم.

ومثل الرومي، لا يستطيع سكان مخيم الامعري، مثله مثل غالبية المخيمات الفلسطينية للاجئين، زراعة دالية للعنب أو أي نبات آخر، بعد أن تكدست المنازل داخل المخيمات فوق بعضها البعض وبشكل متلاصق جدا، ما أدى إلى إغلاق منافس الأرض بالاسمنت واستحالة زراعة أي نبات.

وعلى ما يبدو، فان فكرة وضع الأتربة في أوعية بلاستيكية فوق المنازل، ليس اختراعا تفرد به الرومي فقط في مخيم الامعري، بل إن كثيرين من سكان المخيم، حاولوا تنفيذ الفكرة التي نفذها الرومي، حيث تتدلى الورود وأنواع أخرى من النبات، من على شرفات منازلهم، بسبب انعدام المساحات أمام المنازل للزراعة فيها.

وكلما جلس الرومي مع أسرته فوق سطح منزله، تطل عليه مستوطنة «بسجوت» المقامة على ارض البيرة، على سفح جبل محاذ. ينظر إلى المستوطنة ويقول: أليس ظلما أن يتم تهجيرنا من بيوتنا ويأتي غرباء ويأخذون هذه الأراضي الخضراء؟

ويضيف:

ليس ذلك فحسب، بل إضافة إلى طردنا من بيوتنا ومن خيرات أراضينا في ديارنا الأصلية، نحشر في المخيمات، ولا نجد شبرا نزرع فيه ثمارنا كأننا أصبحنا نحن الغرباء!

منزل في حيفا تعود ملكيته لأحد اللاجئين الفلسطينيين في مخيم نهر البارد، لبنان. استولى عليه أحد المستعمرين الإسرائيليين وتم تحويله إلى مطعم (المصدر: www.flickr.com)



ساعة أمي*

بقلم: مها التميمي**

أخبئها كجوهرة نادرة، أخاف من ضياعها، فاهرع في لحظات عديدة لتفقدها، أتفحصها ثم أعيدها ثانية؛ إنها ساعة أمي الأثرية. الساعة هي الأهم والأكثر رمزية ضمن مجموعة مقتنياتها القليلة، التي احتفظ بها بعد وفاتها منذ ست سنوات خلت، أي نظارتها الكبيرة السوداء، ومنديلها الأخضر الحريري، ومسبحتها البنية الطويلة.

كثيرا ما اضبط نفسي متلبسة وأنا أضع الساعة في يدي علّها تعيدني إلى زمان أمي الجميل في حيفا. الساعة توقفت عن العمل منذ سنوات طويلة؛ توقفت ساعة أمي منذ إصابتها بـ «الزهايمر»، ذلك المرض اللعين الذي دهور حالتها الصحية، وجعلها إنسانة تنتمي للماضي أكثر مما تنتمي للحاضر.

ربما كان توقف الساعة إنذارا مبكرا لتوقف حياتها الآتي، وربما لإدراكها بقرب نهايتها قبل العودة إلى حيفا.

ولكن رغم توقفها بقيت الساعة على جمالها؛ شكلها مستطيل، مرصعة بالماس الذي خبا بريقه بعض الشيء، تحمل كل عبق الماضي، ورائحة شباب أمي عندما تزوجت ابن عمها نزولا عند رغبة جدي،

* القصة الصحفية الفائزة بالمرتبة الثانية (بالتساوي مع قصة "شتلة عنب، ودالية، ومخيم") في مسابقة جائزة العودة السنوية للعام ٢٠٠٩ في حقل القصة الصحفية.

** مها عادل التميمي: باحثة في مجال توثيق التاريخ الشفوي، مشاركة في العديد من الأبحاث منها بحث: ادوار المرأة الفلسطينية في الثلاثينيات والأربعينيات" الصادر عن مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق.

أمين التميمي، الذي قضى بقية عمره في المنفى (روديسيا). كانت رغبة جدي ووصيته أقوى من أية معارضة أبدتها «دلوعة أبوها»، كما أسموها وكما كانت تكرر ذلك بفرح.

عبلة زكي، البنت التي تنافس أخواتها وتحتل مكانا مرموقا في العائلة، لم تأبه من المنافسة مع إخوتها الذكور أيضا، فعندما ارتدى أخوها هشام الذي يصغرها بعامين الطربوش الأحمر، بكت وأصرت على ارتداء الطربوش مثله.

اعتادت الذهاب صبيحة كل يوم إلى المدرسة الانجليزية في حيفا، وهي تعتلي دراجتها الهوائية، يواكبها أحيانا كلبها الأليف، وفي بعض المرات كانت تفاجأ عندما تجد الكلب في انتظارها قرب المدرسة ليعودا معا إلى المنزل. كانت تحب المدرسة كثيرا، قالت لنا في معرض المقارنة بين أسلوب التدريس بالأمس واليوم: «لم يسمحوا لنا التحدث باللغة العربية في المدرسة، الحديث فقط باللغة الانجليزية، وكل مخالفة لذلك يكلف الطالبة غرامة مالية قد تأتي على مصروفها اليومي ويرصد المبلغ في صندوق المدرسة».

ظلت لغة أمي الانجليزية ممتازة، فقد عززت دراستها بعد خروجها من المدرسة، وبعد خروجها من الوطن للدراسة في بيروت، حيث حصلت على شهادة أهلتها لمزاولة مهنة التدريس في معهد الصالحية للتعليم الشعبي. كانت تساعد أولاد جيراننا في دمشق خاصة عند اقتراب الامتحانات. لا زلت اذكر كيف كان يتحول بيتنا إلى ورشة دراسة. ظلت أمي تتحدث عن مدرستها بإعجاب واعتزاز وتتحسر على عدم استكمال التعليم نزولا عند رغبة أبيها وعمها اللذين قررا تزويجها من ابن عمها عادل. بقي تركها للمدرسة مصدر حزن وذكرى لا تخلو من مرارة حتى أيامها الأخيرة. تزوجت في عام ١٩٤٠ وكان عمرها ست عشرة سنة. في تلك الآونة تركت أمي الكتب والدرس، وتلهت بفرحة الفساتين المزركشة الألوان، وكأنها دخلت في لعبة للأطفال.

شكل التهجير في وعيها كارثة كبرى كما كانت لكل الفلسطينيين، فقد أخرجت مع أهلها وهي تحمل أخي وعمره أربعون يوما ويعاني من «سعال ديكي» أو «السعلة الشهاقة» كما تسميها أمي. أما أخي الكبير، وكان عمره أربع سنوات، فقد كان يبكي مذعورا طوال الطريق ممسكا بفستانها محاولا جذبه بقوة من شدة خوفه، وانضم أبي وأعمامي للمدافعين عن مدينة القدس وفلسطين.

لم تستطع أمي استيعاب انقسام الأسرة وبقاء أبي في القدس، كان هذا الموقف أكبر من قدرتها على الاستيعاب وهي الأم الصغيرة المشردة المسؤولة عن طفلين. جعلها هذا الموقف أكثر حزنا وضعفا، فلم تستطع حتى بعد تلك السنوات الطويلة استيعاب ما جرى.

بعد أشهر قليلة التحق أبي بها لكنه لم يجلب معه شيئا. سألته أمي عن السجادة العجمية التي كانت دائما تتحدث عنها بفخر عندما تأتي لزيارتها الجارات الشاميات. لم يشفع لها الحديث عن السجادة العجمية من نظرات الإشفاق في عيون السيدات على حالها. وفشلت أمي في تمويه البؤس بالحديث عن السجادة العجمية ورسوماتها البديعة.

عندما جاءت من دمشق لزيارتنا في رام الله، تداعت ذكرياتها واسترسلت في الحديث عن الماضي، وكأن ذاكرتها قد ثبتت على مرحلة الطفولة في حيفا، وعند مشهد عرسها وفساتينها الملونة. كانت تصف لي فساتينها السبع ضمن «كسوة العرس»؛ فساتين بالأسود والأحمر والأخضر والأزرق والأصفر والزهري والأبيض... قالت لي: « في كل ليلة كنت ارتدي فستانا. ليلة الحناء ارتديت الفستان الأحمر، وليلة الصديقات أذكر أنني ارتديت الفستان الأزرق».

عندما اشتد عليها المرض، طلبت أمي الفساتين! كنت أجد صعوبة في الإجابة، كيف لي أن أتصرف؟ وماذا أقول لها؟ كانت تريد إعطاء تلك الفساتين إلى حفيداتها، وكأنها تود التواصل مع زمنها الجميل المليء بالفرح والحب والرقص والموسيقى عبر حفيداتها. كنت أراوغ وأتهرب من هذا الموضوع، ونجحت في استدراجي لاختراع أسباب مقنعة وغير مقنعة.

«الفساتين معلقة في خزانة في الطابق العلوي من بيتنا في حيفا، في الغرفة الصغيرة التي كنت أنام فيها مع عمتي...»، كانت تسترسل في وصف المكان وتبدو واثقة من كلامها، تنتظر ردي حول مصير فساتينها وهي على أحر من الجمر! أصغي لها وقلبي يعتصر ألما وحزنا، ولا يغير من هذه الدراما تلفظي بوعود ليس لها رصيد من الصدق.

ومن فرط التكرار، قررت أن أحقق لها شيئا من رغباتها بإحضار أي شيء من حيفا؛ أي أثر ينتمي لتلك المرحلة. ذهبت فعلا إلى حيفا عام ٩٨ ضمن نشاط نسوي فلسطيني، وبعد انتهاء اللقاء مع نساء

حيفاويات، طلبت منهن بخجل المرور إلى بيت جدي، بعد أن أخذت وصفا دقيقا له من خالتي الموجودة حتى الآن في دمشق. شرحت لهن بكلمات مقتضبة تعيقها دموعي. وافقن بلا تردد. ومع اقترابي من المكان، استسلمت لبكاء من نوع غير مألوف، بكاء هو خليط يجمع بين ماضي مأساتنا، وحاضر لا يرحم العواطف والقيم الإنسانية. لم استطع كتمان مشاعر الغضب والألم. وأخيرا وصلنا، نزلنا من الباص.

اتصلت شابة بابيها الحيفاوي وسألته عن منزل جدي فقال: «سآتي فورا». وصل بعد دقائق، تعرفت عليه وتبادلنا السلام. وصف لي كيف كان يأتي إلى بيت جدي خلسة، ويسترق السمع للموسيقى التي كانت تسحره وهو طفل في الثانية عشرة من عمره. كان جدي يحب الموسيقى الشرقية والطرب الأصيل! حاولنا الدخول إلى البيت لكن لم نستطع!

تركت المكان وقلبي مملوء بحزن إضافي، وبذكريات أمي وخالاتي الثلاث. رأيت شجرة ليمون ما زالت حية ترزق، هل هي ذات الشجرة التي رأيتها في خلفية صورة أمي وهي تحتفل بخطوبتها؟

ماتت أمي قبل اجتياح رام الله بأيام قليلة، وقضيت معها الأيام الأخيرة وهي تتكلم مع أبيها ومع أمها في حيفا. أتلفت ذاكرتها ولم يبق إلا هذا الجزء الذي ظل شاهدا على علاقة الإنسان الجمالية بالمكان؛ صورة طفلة جميلة تلعب في فناء البيت الذي شاهدته أنا ولم استطع دخوله. عادت أمي إلى زمانها الجميل الذي طالما تغنت به، وحدثتنا عنه، صارت تتحدث بالانجليزية مع الممرضات في المستشفى في إشارة إلى عودتها للمدرسة الانجليزية. عادت أمي من دمشق إلى رام الله، وأكملت عودتها إلى حيفا عبر الحفاظ على هذا الجزء من الذاكرة الذي سجل فصولا جميلة من حياة طفلة قبل أن تقتلعها اليد الهمجية.

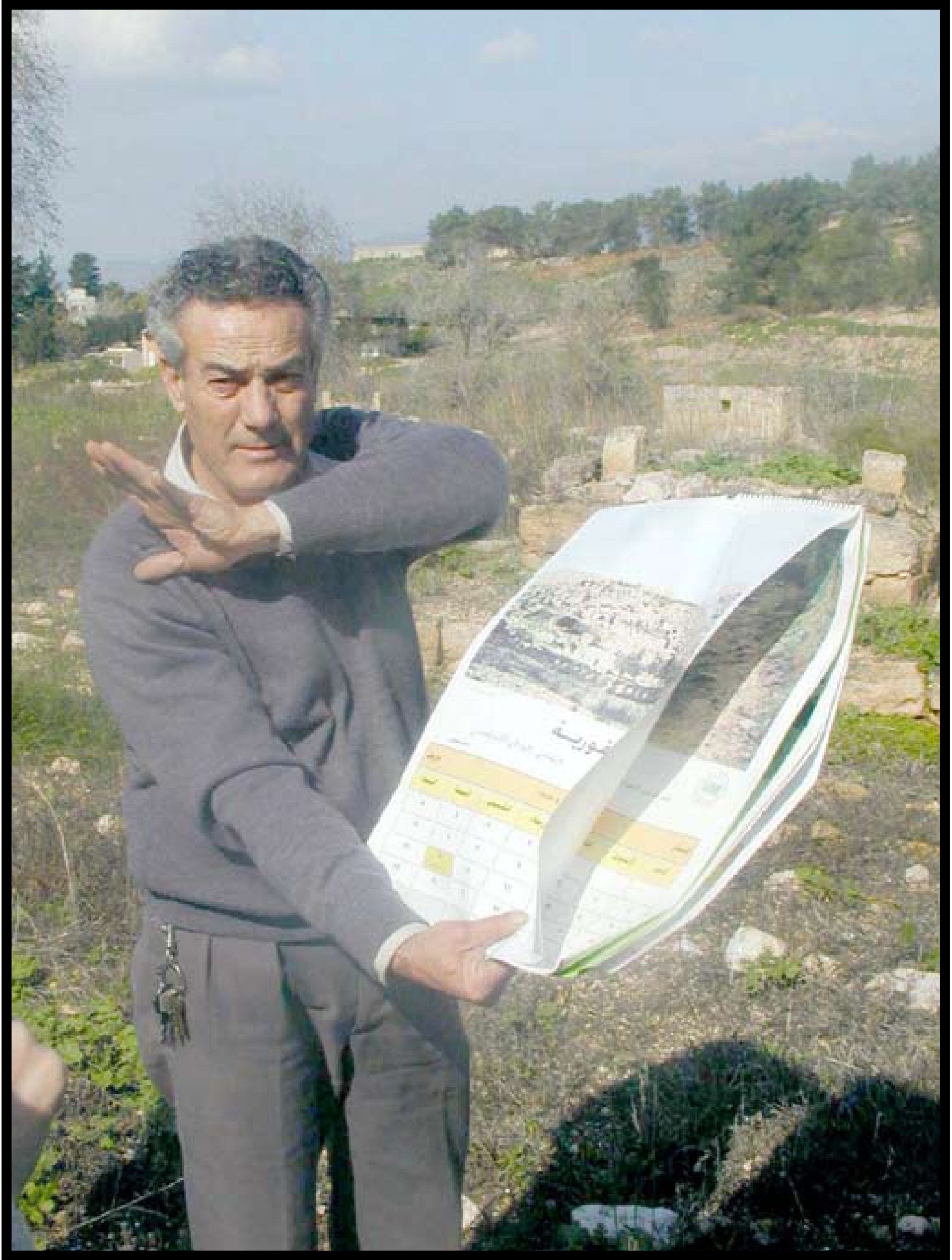
وبقي لغز الفساتين، التي لم أحضرها، كما لم أتمكن من إحضار أي شيء آخر من بيت طفولتها... من مكانها المحبب. وبقيت ساعتها الماسية واقفة عند جدران ذاكرتها، وبقيت أنا انظر إلى الساعة وأخبئها وانتظر...

لقد شكلت حكايات أمي وجدتي نسيجاً رائعاً لصورة فلسطين في مخيلتي وأنا طفلة صغيرة. استمعت بشغف لتلك القصص الملونة التي شكلت عشقي الكبير لفلسطين، وكما يقول ادوارد سعيد: «إن التاريخ،

وبخاصة تاريخ الضحايا، يستمر في الوجود ولا يمحى بسهولة، وهو يستطيع أن يستعيد الحياة بفضل نماذج من الشهادات الشخصية».

«ويظل المحكي الجامعي عن الماضي المكتوب من لدن المؤرخين والسيوسيولوجين هو ناقص، أو على الأقل مفصول عن الواقع الممتلىء والمحسوس الذي يدين بالكثير للحياة والإدراك النسائيين، أصوات وروائح، صور، ملابس، مشاهد منزلية، حدائق، كلها مظاهر غائبة عن المحكيات الأكاديمية ومضحى بها لصالح سرد أكثر تجريدا للماضي...» كما تقول جين سعيد مقدسي في كتاب ذكريات من القدس.

في زيارة بحثية لقرية صفورية المهجرة، أيلول ٢٠٠٣ (تصوير : مركز بديل)



حلم من تراب*

بقلم: رنا علي عوايسة**

شيء ما يحوم حول أم رشيد؛ يحوم في عينيها، في كلامها، في أنفاسها. ذات الشيء يحوم حول ابنة عمتها الحاجة آمنة. اشعر بهذا الشيء كلما تذكرتا قريتهن المسروقة «شرعا» صفورية. تقول أم رشيد وهي تلتقط الأحجار الصغيرة من بين حبات العدس وترميها: «ما زلت اطبخ العدس في أول يوم من رمضان منذ أيام صفورية».

فترد الحاجة آمنة:

– وأنا أيضا، بالرغم من أنني لا أصوم منذ سنين بسبب مرض السكري اللعين، إلا أنني أحافظ على هذه العادة، فقد كانوا يقولون في صفورية أن العدس في أول يوم من رمضان يحافظ على البيت متماسكا.

فتتساءل أم رشيد:

لا ادري لماذا أصبح نصف الناس يعانون من هذا المرض، بالرغم من انه كان نادر الوجود في صفورية؛ حتى أنهم كانوا يلقبونه «بمرض الأكابر»؛ لأنه كان يصيب قلة من الأغنياء الذين كانوا يتغذون جيدا.

«انه قدري المشئوم منذ ولدت، مرض وغربة، يا ليتني بقيت في مخيم عين الحلوة مع أهلي. تقول الحاجة آمنة ويعود بها الزمن إلى صفورية قبل ستين عاماً، حين كانت في الرابعة عشرة من عمرها. كان الخامس عشر من شهر رمضان، السادس من شهر تموز عام ١٩٤٨، وهو اليوم الذي هوجمت فيه صفورية وقصفت بالطائرات التابعة للعصابات الصهيونية بعد أن أبدت مقاومة شرسة.

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠٠٩، حقل القصص الصحفية.

** رنا عوايسة: بكالوريوس علم نفس، مقيمة في الناصرة، فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨.

يومها قال لهم جيش الإنقاذ العربي انجوا بأنفسكم، اهربوا شمالا... شرقا، جنوبا...غربا، ستعودون، أوصدوا أبوابكم، ستعودون. القوا أسلحتكم، أمر القائد بنزع الألغام، سيهاجم جيش الإنقاذ جيش اليهود وتعودون... لم يقل لهم احد أنهم سيعودون إما جثثا وإما زوارا غرباء إلى مهد ولادتهم. فروا شمالا... إلى بلاد الأرز... وبقي خطيب الحاجة آمنة في الناصرة.

عندما تبدأ هذه المرأة بتذكر صفورية وعين الحلوة، اشعر بأشياء تحوم حولها لكنني لا أراها، وكأن أرواح من ماتوا من أحبائها تبعث حية في دموعها وفي صوتها المحزون. قالت أنها لا تستطيع أن تنسى وجه إبراهيم، ابن أخيها، المتورد كالتفاح. لقد مات على صدرها كعشرات الأطفال الذين قضوا بسبب داء الكوليرا الذي تفشى في المخيمات المعدمة. «إبراهيم، تصيبني غصة كلما نطقت أو سمعت هذا الاسم، إبراهيم ابن أخي محمد مات بداء الكوليرا. والدي كان اسمه إبراهيم، ومات حزنا وقهرا في خيمة بالية، وابن أخي حسين كان اسمه إبراهيم أيضا، واستشهد في حرب المخيمات. انه اسم يقتل صاحبه، كم اكرهه»!

وبعد سنتين في مخيم عين الحلوة تسلل خطيبها عبر الحدود وجاء ليصطحبها معه إلى ما أصبح يطلق عليه «إسرائيل» ليتم زواجه منها. «عودي معه يا آمنة»، قال والدها بصوته المنهك. «سنلحق بك حتما»، قال أخوها الأكبر. «هل تظنين أننا سنقضي عمرنا كله لاجئين في لبنان، اسبقينا إلى فلسطين»، قال أخوها الأصغر. وحده صوت الأم لا يعلو فوق وقع الدموع.

عانقوا فراقهم بالدموع ولوحوا مطمئنين بالعودة. مضت آمنة من ليالي الصقيع والجوع في المخيم إلى ليالي الحنين والنحيب في الناصرة.

تمضي الأيام في الناصرة، وفي كل يوم تشرع المرأة بابها، تقلب وجه الطريق عله يحمل أحباءها إليها. ترقب ذلك المدى الممتد من شمال فلسطين إلى جنوب لبنان كالشريان الممتد إلى القلب، لكنها لا تراهم، وحدها عبارة: «عودي معه يا آمنة، سنلحق بك» تلوح في الأفق؛ لكنهم لا يعودون.

– ألم تقابليهم مرة أخرى بعد أن زاروك في سنوات الثمانين؟ تقطع أم رشيد شريط الذكريات.

– كلا، لقد كان كل شيء يحدث بالصدفة، كانت تصلني أخبارهم مع أناس لا اعرفهم يأتون هنا لزيارة

أقربائهم. فقط في العام ١٩٧٤ بعيد انتهاء فترة الحكم العسكري في أراضي ١٩٤٨ تمكنت من استصدار تصاريح لمن تبقى على قيد الحياة، لزيارتي في مدينة الناصرة.

يعود إخوتها وأخواتها إذن، زائرين إلى وطنهم، يزورون قريتهم التي بني على أنقاضها مستوطنة «تسيبوري» وتصادفهم هناك لافتة تقول: «ممنوع دخول الغرباء». يحملون لها أخبار من مات، ومن سجن، ومن ما زالوا يصارعون الحياة في المخيم. ماتت الأم، استشهد ابن أخيها في مذبحة تل الزعتر، وابن أخيها الآخر فقد سمعه وبصره بسبب التعذيب، وأما التهمة فانتمائه لإحدى الفصائل الفلسطينية.

ما أثقلك أيها الموت حين تباغتنا دون سابق إنذار! لماذا نستبعدك دائما وأنت اقرب إلينا مما نتصور؟ من قتلنا بالأمس في فلسطين ومن يقتلنا اليوم في تل الزعتر ونهر البارد، ولماذا؟

وتكون الزيارة الأخيرة في عام ١٩٨٢ لأخيها الأكبر أبو إبراهيم وأختها خديجة. يحدثونها عن أيام تشبه يوم القيامة، يعيشونها في حرب اختلطت فيها أسلحة العدو مع أسلحة الشقيق. يحدثونها عن أولادهم الذين ما زالوا في ذاكرتها أطفالا بائسين يفرون شمالا. لقد كبروا إذن! فلان تزوج فلانة، فلانة وفلانة تزوجتا في مخيم نهر البارد، أما فلانة فقد تزوجت في مخيم المية ومية.

يجلس الأخ متقلباً، قلقاً وقد احتل الحزن ملامحه، فيسأله صوت:
– ما بك يا خال؟
– أفكر فيما سأفعله حين أعود إلى المخيم، هل ابني بيتا مكان بيتنا الذي هدم بسبب الحرب الأخيرة، أم ابني خيمة؟

يجيب الرجل ثم يضيف:
– لعنة الله على حياة المخيم، لماذا ابني بيتا في لبنان، قبور أبائنا وأجدادنا هنا في فلسطين وليست في عين الحلوة. سأبني خيمة... لا بد أنني سأعود لكي أموت في بيتي وفي تربتي.

تضيف الأخت خديجة:
– إنها ليست عين الحلوة، إنها عين المرة. حتى أفراحنا تعتصرها المرارة.

إذن قد تتحول أحلامنا الوردية بالعودة إلى أحلام ترابية تتجسد بقبر صغير يعانق تراب الوطن. حتى أحلامنا الكبيرة خفضت سقف المطالب، لكن دون مفاوضات مع السارق.

وتمضي السنين وتنقطع زيارات وأخبار إخوة الحاجة آمنة في لبنان.

تلهب ذكريات المرأة جراح أم رشيد فتترقرق الدموع في عينيها، تنساب بين ثنايا التجاعيد التي حفرتها السنين في وجهها الأسمر. قد لا تتذكر وقد شارفت على التسعين ما حصل لها في الأمس، لكن حديث الشجن الذي أثارته ابنة خالها يعيد إلى ذهنها أدق التفاصيل التي حدثت في يوم احتلال صفورية قبل ستين عاما.

في حين كان والدا وإخوة أم رشيد يلجأون شمالا إلى لبنان، كانت المرأة توصد بابها وتخبئ مفتاحها وتلجأ مع زوجها وأطفالها إلى الكهوف المعلقة في بساتين صفورية، وهي تحتضن طفلتها ابنة التسعة أشهر. أي رعب هذا الذي يدفع جسدا واحدا إلى الرحيل نصفه شمالا، ونصفه الآخر جنوبا؟!

لا تكتفي العصابات الصهيونية بقتل أهل القرية وترحيلهم، بل تلاحقهم في تلك الكهوف فيواصلون ترحالهم من قرية إلى قرية. تقول أم رشيد: «كنا نأكل أي شيء نصادفه، لكن ذلك لم يكن كافيا لدر الحليب في صدري، لذا كنت اقلب القمح اليابس على النار وامضغه ثم أطعمه لطفلتي علها تعيش، لكن دون فائدة. ماتت ونحن في طريق عودتنا إلى صفورية». تخنق الدموع ما تبقى من كلام ويخيم صمت ثقيل على المرأتين.

تغالب أم رشيد دموعها وتواصل: «لقد دفنتها هناك في صفورية، في مقبرة القرية العمومية. لقد فضلت أن تبقى هناك، لا بد أن تراب صفورية أدفأ من أي تراب آخر».
– ما هي أخبار أختك رابعة يا أم رشيد؟ تسال الحاجة آمنة.
– زارتني في الصيف الماضي، تبدو صحتها متعبة.

تجيب أم رشيد وفي رأسها يحوم شريط الذكريات، يعود بها إلى ذلك اليوم الذي تسللت فيه إلى صفورية المحاطة بالجنود. حينها بعثت إليها أختها رابعة بطلب مع احد المتسللين بان تبحث لها عن

شهادتها التي خبأتها وراء المرآة الكبيرة المعلقة في صدر البيت، علها تمكنها من مزاولة التدريس في لبنان وإعالة أسرتها في مخيم عين الحلوة.

كانت رابعة من أوائل الفتيات في فلسطين اللاتي واصلن دراستهن، حيث حصلت على إجازة في التعليم من رام الله التي درست فيها مدة عامين. مارست رابعة مهنة التدريس لمدة سنتين في الناصرة وفي سخنين؛ إلا أنها، وأثناء النكبة، لجأت إلى لبنان مع أفراد عائلتها دون أن يمهلها القصف والرصاص المنهمر، فرصة لاصطحاب شهادتها.

وتتسلل أم رشيد إلى قريتها المحتلة فتصادف كتيبة جيش بالقرب من منزلها. بالرغم من الخطر المحدق من كل ناحية، تتقدم المرأة بكل شجاعة من بيت والدها، فهي تدرك جيدا أهمية إيجاد الشهادة وإيصالها إلى أختها في لبنان، فعليها يتوقف مصير عائلتها المشردة في المخيم التي لا تملك مصدرا للرزق سوى «كرت المؤن»، والذي يحصل اللاجئ من خلاله على معونات هزيلة من منظمة الاونروا.

يوقفها قائد الكتيبة ويحدثها بعربية مكسرة:
– ماذا تريدين؟
– أريد أن أتناول غرضاً من هذا البيت، انه بيت والدي.

تجيب أم رشيد بحزم. يرمقها الضابط بنظرات تفحص ويطرق مفكرا للحظات تمضي بثقل سنين على أم رشيد، ثم يقول:
– ادخلي، لكن لا تتأخري.

تدخل أم رشيد بيت أبيها المسلوب تركض إلى المرآة المعلقة في صدر البيت، وتبحث خلفها عن الشهادة لتجدها ملفوفة ومربوطة بخيط رفيع وكأنها تنتظر قدوم المرأة. «شعرت بأنني قد ملكت الدنيا في لحظتها، وبعثت بالشهادة إلى رابعة فباشرت التدريس في لبنان وأعالت الأسرة»، تقول أم رشيد.

يثقل الحزن وحديث الشجن على الامرأتين فتخنق عبراتهما ما تبقى من كلام، ويخيم الصمت من جديد. صمت وامرأتان، في حضورهما تستشعر أرواح أحبائهم القتلى. حضورهما المهيب يذكرك بذاك

الضجيج الذي تحدثه نساء القرية عند نبع القسطل وهن يملأن جرارهن بذلك الفرح الذي يرافق موسم الحصاد، بحكايات ليلية ترويها جدة لأحفادها، بتلك البيوت الحجرية التي تمتد على أحجارها أوراق الدوالي وغصون أشجار الياسمين.

وفي ليلة من ليالي الانتظار والحاجة آمنة تراقب ذلك المدى الممتد من شمال فلسطين إلى جنوب لبنان، يأتيها صدفة خبر موت أخيها محمد وأختها خديجة ودفنهم في مقبرة المخيم.

ما جدوى الانتظار إذن؟! ها قد مات معظم الأحبة ودفنوا في تراب غريب، أما من بقوا أحياء فتنتظر المرأة صدفة عابرة تنقل لها خبر حياتهم أو موتهم، فحياتهم البسيطة وموتهم الصامت لن يرتقي إلى مرتبة «خبر عاجل». ليس الانتظار إذن سوى وقت بعثرناه بدلا من أن نستثمره، يعبث بنا في حين يسرق أحلامنا وعمرنا.

هل يا ترى استكانت روح أبي إبراهيم في تراب غريب؟ لا بد أنه ما زال يتقلب قلقا في قبره وهو يفكر في جدوى بناء بيت أو خيمة. لا بد انه قلق أيضا لمصير بناته اللاتي تزوجن في مخيم نهر البارد، بعد أن تدمر بالكامل بسبب حرب جديدة. ولو استطاع الحديث إليهن لطلب منهن أن لا يبنين بيوتا جديدة، وبأن يكتفين بالخيام، فحتما سيعدن يوما ما إلى فلسطين. استطيع أن أتخيل عينيه تطلان مع آلاف العيون عبر ظلمة القبر إلى شمال فلسطين، وهي تتوق إلى تراب وطنها لكي تغمض أجفانها.

ها هي أم رشيد ثانية. أصادفها ذات صباح تجمع فيه مهجرو القرية عند المقبرة لتنظيفها. تنظف المرأة التراب الذي يكسو قبر طفلتها من الأعشاب وتقول أنها تحلم أن يغطيها تراب صفورية حين تموت، وأنها، وبالرغم من مضي أكثر من ستين عاما، تشعر أن طفلتها ما زالت جائعة بعد أن نهشها الجوع وماتت.

آه يا أم رشيد لو تعلمين! في محرقة غزة ٢٠٠٨ ليس الجوع ما ينهش أجساد الأطفال، بل الكلاب تنهش جثثهم البائسة الملقاة في الشوارع. جثثهم تتوق لتراب دافئ تعانقه، لكن القصف يحول دون دفنها. ونحن عالم بأسره، كرة أرضية تتفرج على مساحة صغيرة، بحجم علبة كبريت، وهي تحترق بأهلها وحجرها. لم ير العالم عائشة وهي تموت بين أحضانك يا أم رشيد فعذرته، أما عالم اليوم فقد رأى بأم

عينيه أطفال غزة وهم يحترقون بالفوسفور الأبيض، وبأسلحة أمريكية تختبر نجاعتها على لحومهم الطرية، فهل هناك من عذر؟! وما زالت أجساد الأطفال تسحق بالطائرات يا أم رشيد، لكي تثبت للعالم أن هذه بلادنا، وبأننا لن نرحل مرة ثانية. وما كان هذا العالم ليشبع من دمهم ويؤمن أننا لم نهبط من مجرة فلكية. لكن جثثنا البائسة التي التحمت برحم الأرض هي ما يثبت أننا تراب هذه الأرض وجذورها.

وما زال حلم أم رشيد بالعودة إلى تراب صفورية يلوح في أفق مقبرة القرية.

وفي أفق ذلك المدى الممتد من شباك الحاجة آمنة حتى مخيم عين الحلوة ما زالت تلوح عبارة: «عودي معه يا آمنة، سنلحق بك... سنعود».
وها هم يعودون حقاً، لكن إلى التراب...

صفورية– قضاء الناصرة

١٦ آذار ٢٠٠٩

مهرجان جائزة العودة، فرقة مركز لاجئ للفنون الشعبية، مركز بديل ٢٠٠٩ (تصوير : معاً–مركز بديل)



ياشمس يا شموسة*

بقلم: شيماء يوسف**

– ماما سني بده ينخلع...عم بيتخلخل...

ابنتي تلاحقني بهذه العبارة منذ أسبوع، تتقافز مثل برغوث يشعر بالحر من مكان لآخر في أنحاء البيت، تتنطط من مرآة لأخرى، من مرآة غرفة النوم إلى مرآة الحمام، ثم تمسك بمرآتي الصغيرة الملتصقة بعلبة الماكياج التي لا أستخدمها إلا في المناسبات وتنظر لفمها الصغير المفتوح والذي يسيل منه اللعاب...

– ماما بس شوي وينخلع، يا دوب ماسك...

تتأمل السن اللبنية بالمرآة وهي فرحة لأن تبديلها أسنانها يعني أنها كبرت. كانت تشعر فيما مضى أنها أقل من زميلاتها في الصف؛ لأنهن جميعا بدلن أسنانهن الأمامية إلا هي.

– إياك أن تلمسيه أو تحاولي خلعه عنوة.

جدي يجلس حول موقد النار في غرفتهم القرميدية، ويضع فوق الموقد قطعا من الخبز ليحمصها، ويضع أيضا إبريق الشاي الأسود اللون؛ طبعا أعنى الإبريق فهو أسود من الخارج بسبب تعرضه

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠٠٩ ، حقل القصص الصحفية .

** شيماء يوسف : ١٦ عاما ، طالبة في الصف العاشر ، مدينة غزة – قطاع غزة .

للهباب المتصاعد من النار طول الوقت، فهو لا يرفع تقريبا عن الموقد، وأسود من الداخل لأن بداخله شايا أسود من كثرة إعادة غليه. جدي فقير وعجوز بلا عمل، أبناؤه الذكور نزحوا جميعا ما بين مصر والأردن بعد حرب العام ٦٧ وأصبحوا في الخارج لا يكادون يتدبرون أمورهم كلاجئين يبحثون عن لقمة العيش لعائلاتهم الصغيرة. لم يعد لجدي في غزة سوى أمي وخالتي. خالتي كانت فقيرة معدمة بجيش من الأطفال، حائرة ولم يكن باستطاعتها أن تقدم شيئاً لجدي وجدتي العجوزين الفقيرين.

– ماما هاتي لي بنج وحطيه على السن واخلعيه زي ما بيعمل طبيب الأسنان...

الدماء تنزف من لثتي المحمرة المتورمة، منذ يومين لم اذهب إلى بيت أهلي، فأنا أقضي كل يوم خميس وجمعة في بيت جدي وجدتي، وأنا أجلس قبالة جدي وهو يحرك النار بعينين محمرتين، ويتحرك ليعدل من جلسته وأرى ثقب سرواله الأمامي وأتساءل لماذا كل سراويل جدي مثقوبة من الأمام؟

يمد يده جدي ويقول لي: «افتحي تمك...»

لهجته حازمة آمرة لا تخلو من حنان، لذا أفتح فمي ويلتقط بين أصابعه السن التي على وشك أن تسقط، وكأنه يلتقط بملقطه جمرة من الموقد ليضعها في زاوية أخرى غير مشتعلة. أمسك بالسن التي تقطر دما وقال لي: «قفي في مواجهة الشمس وقولي يا شمس يا شموسة، خذي سن العجوزة وهاتي سن العروسة، وتمني أي شيء وأنت تنظرين للشمس سوف يتحقق وهي تقبل سنك راضية».

– ماما لما ينخلع سني بدي أرميه للشمس علشان تبعت لي سن أحسن منه.
– يا ماما هاي خرافات وكلام فاضي، لما ينخلع ارميه في سلة القمامة في المطبخ.
– لا بدي أرميه للشمس...

تهرب من أمامي وأنا أحاول أن أمد يدي لأخلع لها السن وأرتاح من التأوهات المستمرة، والأسئلة التي لا تنقطع: «متى سينخلع؟ لو نمت وانخلع وبلعته ماذا سيحدث؟ غادة صديقتي تقول: «لو انخلع وأنا نايمة راح ينزل في بطني ويكبر ويكبر ليصير زي أنياب الفيل وأموت...»

في المساء، اجلس أنتظر شروق شمس شتاء عزيزة، أدعو الله وأنا أنام إلى جوار جدتي وقد وضعت السن في ورقة صغيرة اقتطعتها من دفتري، أدعوه أن يكون الغد يوما مشمسا حتى أرى الشمس وألقي لها بسني وأمنيتي. ولكني ماذا سأطلب من الشمس؟ سأتمنى الكثير من الأشياء لجديَ العجوزين اللذين أحبهما كل الحب. أحب رائحة بيتهما الصغير، ورائحة أجسامهما، وكل شيء يخصهما، أحب أحاديث جدي عن البلاد، وهو حين يتحدث عن البلاد يتحدث وكأنه سيعود في الصباح إليها.

جدي وجدتي يعيشان في فقر مدقع، لا أعرف من أين ينفقون! أمي تعمل معلمة ولها راتب، ولكنها تمنحهم مبلغاً صغيراً، وطالما سمعت جدتي تشكو لجدي من تقتير أمي عليهما. لم أتجرأ وأسأل أمي لماذا تقتر على والديها، ولكني حين كبرت وبدأت أمي تحكي، اكتشفت أن أمي كانت تدين بالولاء التام لوالدي الذي هو زوجها، فهو الذي يتسلم راتبها من البنك، ولم يكن يمنحها والدي سوى مصروف شهري وأجرة مواصلاتها، ولكنها كانت تذهب للمدرسة سيراً على الأقدام، وتوفر أجرة المواصلات لتعطيها لجدتي.

لم يكن أبي يتخيل أن جدّيَّ في عوز وحاجة؛ لأنهما دائما يتفاخران أمامه بالمبالغ التي يرسلها لهما أولادهما من مصر والأردن، حيث نزحوا بعد النكسة، ولكن الحقيقة أن أخوالي منذ أن نزحوا عن الوطن انقطعت أخبارهم تماما عن جدي وجدتي. وفي الزيارة الوحيدة التي قامت بها جدتي لهم في هذين البلدين اكتشفت كم هو بائس وحائر اللاجئ في دولة عربية، وأن حاله لا يقل بؤساً عمن لجأ إلى غزة، فلم تمنح جدتي نفسها الحق في أن تطلب مساعدة لن تنلها من أيٍّ من أولادها.

أنام ويدي تقبض على السن، وأتخيل الشمس تمد يداً ذهبية عملاقة نحوي، وبأصابع تشع نوراً ودفئاً تلتقط السن من كفي الصغيرة. ماذا ستصنع به؟! وأهمس لها بخجل بأمنيتي لأنها أكبر من سن لبني؛ أريد بيتاً صغيراً إسمنتياً لجديَّ بدلاً من بيتهما الذي أتخيله سيسقط كل لحظة، وأريد لهما الكثير من السكر لأنهما يعدان الشاي بلا سكر، وجدتي تتعلل بأنها مصابة بمرض السكر الذي لم تحاول أن تأخذ له علاجاً، حتى بعد أن تورمت أصابع قدميها وأصبحت تسير بصعوبة. ك

نت أشرب الشاي بلا سكر؛ لأني أعرف أن العلبة المعدنية الصغيرة التي تضع بها جدتي السكر فارغة إلا من بعض السكر الذي تحول إلى حبيبات صلبة على جوانب العلبة. لم أطلب يوماً شاياً

بسكر رأفة بهذين العجوزين، بل إني قد اعتدت حتى اللحظة أن أشربه هكذا، ولكني سأطلب أيضاً من الشمس العملاقة الحارقة أن تعيد جدي لأرضه وقريته. حتماً هناك سيجد البيت الواسع والخير الكثير، وسيتوقف جدي عن الادعاء كذبا حين يقسم أمام الجيران أن جيبه مليء بالمال الذي أرسله ابنه من مصر، وفي الحقيقة أن جيب جدي فارغ؛ إلا من أعواد الكبريت المطفأة والتي يحتفظ بها لينظف بها أسنانه!

– ماما هاتي لي ورق «فاين» لأمسح الدم خلص انكسر السن...
– اذهبي وتمضمضي بماء وملح حتى لا ينزف دماً أكثر.

ألقيت السن في اتجاه الشمس وبحت لها بأمنياتي الكثيرة، وأنا ارجوها أن تحققها؛ خاصة أن ذلك الصباح كانت الشمس متوهجة وحمراء لامعة أكثر من أي يوم رأيتها فيه. يومها سمعت من الداخل جدتي تبكي وتولول، فقد جاءت جارتها العجوز والتي تسير منحنية حتى يكاد يلامس رأسها الأرض، لتخبر جدتي عن مجزرة صبرا وشاتيلا.

كانت جدتي تنحدر من جذور لبنانية وكل إخوتها في لبنان، جدتي تبكي والجارة تصف لها المجازر التي يبثها التلفزيون الإسرائيلي دون خجل! وددت لو ركلت العجوز التي أبكت جدتي حتى تتهشم وتصبح كل يد في جهة، وكل قدم في جهة...

جدتي تمرض فأطلب من أمي التي زارتها على عجل أن أظل عندها لأرعاها، لا تمانع أمي وهي تتخذ طريقها إلى مدرستها.

– ماما هيني طالعة فوق السطح لأرمي السن وأقول للشمس شو بدي منها...

أعود من المدرسة لأجد تجمهراً على باب البيت، أدخل بصعوبة وأتعثر بقطعة خشبية طويلة تشبه شكل السرير بدون حشوة ووسادة، وضلعا نخل يسدان مدخل الباب. أنظر إلى ساحة البيت الضيقة فأجد أمي وخالتي تتناوبان الندب واللطم، وأرى من بعد قدمي جدتي المتورمتين وهما ممددتان على الأرض.

أقترب أكثر فأرى جسد جدتي بلا حراك، جدتي ماتت! نوبة سكر أودت بحياتها في لحظات! أبكي في ركن منزو، ولا أحد يلتفت إلي. كيف تموت جدتي من ارتفاع السكر وعلبتها المعدنية فارغة من السكر؟



بدو الجهالين، مهجرون منذ العام ١٩٤٨ ولا يزالون (تصوير: آن باك/ بديل، آب ٢٠٠٦)

التهجير بعيون بدوية*

بقلم: مروة الحسنات**

الحسنات: ارتداء الثوب المطرز حُلمٌ أجلته النكبة وبعثرت خيوطه الملونة:

ما بين مدينتي بئر السبع وغزة تقع الرُمَّالة، حيث كانت تسكن عشيرة الحاجة صبحة محمود الحسنات ذات الخمسة والسبعين خريفاً. مرور ستين عاماً ونيف على النكبة والتهجير لم تمحُ من ذاكرتها الصغيرة آنذاك الأيام الأولى للتهجير عن موطنها الأصلي: مدينة بئر السبع جنوب فلسطين المحتلة، والتي هجرت منها في شهر أكتوبر تشرين الأول من العام ١٩٤٨.

وفيما كانت الصغيرة «صبحة» ابنة الأحد عشر ربيعاً تستعد لارتداء أول ثوب في حياتها، كان اليهود قد بدأوا بالوصول إلى مضارب عشيرتها: «عشيرة حسنات أبو معيلق»؛ لتمديد خطوط المياه عبر أراضي العشيرة؛ حيث كانت أم العبد تلعب مع أقرانها من الأولاد والبنات، ترعى الأغنام، وتحلب الأبقار لتعود في المساء إلى البيت لتجد في انتظارها وجبةً من فتة اللبن وهي (خبز صاج مع لبن وزيت زيتون)، ولتنام ليلتها تحُلم بالثوب المطرز الذي تطرزه أمها لها، والتي تزوجت بعد وفاة أبيها وتركتها مع شقيقتين أصغر منها في رعاية عمها وزوجته.

للقُطين نصيب في تاريخ التهجير:

ذاكرة أم العبد ما زالت تنبض بمرارة ذكريات النكبة عام ١٩٤٨، فهي لا تعرف تاريخا ميلادياً أو هجرياً

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠٠٩، حقل القصص الصحفية.

** مروة الحسنات: دير البلح– قطاع غزة، البلد الأصلي بئر السبع، فلسطين، بكالوريوس صحافة وإعلام (الجامعة الإسلامية – غزة)، دبلوم إذاعة (جامعة بير زيت)، محررة ومقدمة أخبار في إذاعة محلية.

لرحلة النزوح من بلادها. «عندما تركنا بيوتنا كان الحصادون يُذَّرون القمح، وكانت النساء يضعن التين على أسطح المنازل في أشكال مرتبة ليصبح في ما بعد قُطيناً».

وعن الأيام الأولى، التي سبقت التهجير تقول أم العبد أن قدوم اليهود لبلدتها كان بهدف تمديد خطوط المياه في وادي (صَّحان)، وهو وادٍ يفصل بين مضارب عشيرتها وبين بيارة لأحد رجال العشيرة. وتواصل حديثها بالقول: «لم استوعبْ ما يفعله اليهود بأرض العشيرة ولكني كنت اسمع من الأهل والأقارب أنهم جاءوا للنهب والتخريب».

وتروي الحاجة أم العبد قصة من عشرات القصص عنوانها الرئيس: «تحدي رجال العشيرة للقادمين الجدد إلى بلادهم». ومن هذه القصص عندما كانت الحاجة أم العبد تملأ الجرار بالمياه هي وقريناتها من الفتيات من وادي «صَّحان» جاء عدد من رجال القبيلة وقاموا بإطلاق النار على أنابيب المياه ولاذوا بالفرار بعد أن أوصوها هي وصديقاتها بعدم البوح لأي كان. وتقول أم العبد إنه بعد فترة وجيزة جاء اليهود بجيبات عسكرية وبلغتهم غير المفهومة وصراخهم المستمر أصلحوا مواسير المياه وانصرفوا من حيث أتوا.

ومع احتمالات شن هجوم «يهودي» على العشيرة خاصةً بعد تكرار إعطاب مواسير المياه من قبل رجالها، قرر شيخ العشيرة أن تبيت النساء والأطفال هذه الليلة في وادي صَّحان بعيدا عن مضارب العشيرة، في حين بقي الرجال يحرسون البيوت والماشية وأجران القمح والشعير على ضوء القمر، وفي الصباح ومع بزوغ أشعة الشمس التي تسللت إلى الوادي عادت النساء وأطفالهن إلى مضارب العشيرة.

خروج بلا عودة:

ومع تكرار حوادث إطلاق النار المتبادل بين رجال العشيرة واليهود الصهاينة الذين حاولوا سرقة الماشية، حيث أسفرت أحد الحوادث عن استشهاد يوسف أبو صبرة وإصابة سكران أبو معيلق برصاصة في ركبته، وهروب الصهاينة الذين كانوا يحرثون أراض تابعة للعشيرة بجرار زراعي، قرر رجال العشيرة الرحيل عن المكان خاصة بعد توارد الأنباء عن المذابح التي اقترفتها عصابات الهاجاناه في دير ياسين وغيرها من القرى الفلسطينية. بدأت عائلات «عشيرة حسنات أبو معيلق» وغيرها من

العشائر المجاورة بطي بيوت الشَعر التي كانت مشَّرعة وأعمدتها الخشبية ثابتة في الأرض– كثبات أهلها على مدى العصور– وتتابع أم العبد حديثها، فحديثها ذو شجون، على الرغم من أنها كانت صغيرة السن آنذاك ولم تدرك ما يدور حولها، إلا أنها كانت تشعر بشيء غريب يختلج في صدرها لم تعِهِ إلا عندما ابتعدت عن المكان كثيرا واستقرت في أحد مخيمات اللاجئين في قطاع غزة. وعن النزوح تقول أم العبد: «نصب عمي بيت الشَعر بعد مسير ليس بقليل في منطقة تسمى أبو مطبيق تبعد (٢ كيلومتر) عن مضارب العشيرة، حيث نمنا ليلتنا الأولى...».

الطاحونة ورحلة العودة:

في صباح اليوم التالي، أدركت زوجة العم أن الطاحونة (الرحَّى) لم تكن ضمن الأغراض التي استطاعوا أن يأخذوها معهم، أو أنها تعمدت أن تتركها هناك فالعودة قريبة والغربة لن تطول. وتقول أم العبد: «أن زوجة عمها طلبت منها العودة إلى الرُمَّالة لإحضار الطاحونة كي تطحن بعض القمح والعدس، فذهبت هي وابنة عمها «صديقة» على حمار لهم.

أحضرتا الطاحونة، وبعد العصر وحين انتهت زوجة عمها من طحن ما يحتاجونه من طعام، أمرتهما مرة أخرى بإرجاعها إلى مضارب العشيرة – والتي تبعد حوالي أربعة كيلومترات عن مدينة غزة قائلة: «رجعيها يا بنيَّتي إحنا بدنا نرجع محنا مطولين». هذه الكلمات مازالت عالقة في ذهن أم العبد حتى الآن.

تنقلت العشيرة البدوية بين عدة مناطق تابعة لقضاء مدينة غزة، منها المنطار، وجحر الديك شرق المدينة. في تلك الفترة، كانت بعض عائلات العشيرة تشجع بعضها على العودة إلى «الرُمَّالة» لجلب ما تيسر حمله من ثمار يانعة تركوها على أغصانها. وتذكر الحاجة أم العبد أنه في إحدى المرات وأثناء تواجدهم في وادي «صحَّان» هي وعمها وأبنائه، فاجأهم اليهود على حين غرة، فاختبأوا تحت بعض الشجيرات التي نبتت على جانب الوادي، وذهب العم للبحث عن ابنه صبري الذي تركه في الجانب الأخر من الوادي ولكنه لم يكمل طريقه؛ حيث أصيب برصاصة أطلقها اليهود عليه مباشرة ليلقى ربه شهيدا. كان ذلك في العام ١٩٥٠ قبل أن يوارى الثرى في المنطار شرق غزة حيث استقرت العشيرة هناك فترة قصيرة.

الثوب المطرز والنزوح:

وعن الثوب المطرز الذي كانت تحلم أن ترتديه الصغيرة «صبحة» تقول أم العبد: «أن أمها أرسلته لها مع شقيقتها «ذوابة» بعد أن أكملت تطريزه في قرية جحر الديك».

وتتابع أم العبد حديثها، فبعد إرساء خط الهدنة ليفصل ما بين أراضي ٤٨ وقطاع غزة، كانت فتيات عشيرتها يقمن برعي الماشية التي هجرت مع أصحابها على خط التماس مع دولة الاحتلال الإسرائيلي في منطقة جحر الديك. وفي إحدى المرات اخترقت بعض الفتيات مع الماشية هذا الخط الوهمي، فأطلقت عصابات الصهاينة النار عليهن فاسُتشهدت مزيونة أحمد الحسنات، وأصُيبت وصفية عرار أبو معيلق، وقُتلت الماشية عن بكرة أبيها، أما باقي الفتيات فسقَّطن من شدة الخوف في غدران المياه المتجمعة في المنطقة. بعد هذا الحادث، أصبح الاقتراب من خط الهدنة خطيراً؛ حيث منع الأهالي أولادهم من الرعي في تلك المنطقة.

ما بعد بيوت العز والكرم!

استقرت عائلة أم العبد التي كانت تبلغ من العمر حوالي ١٥عاماً شرق مدينة دير البلح وسط قطاع غزة، حيث اشتدت الحياة قسوةً وضراوةً بعد مقتل الماشية التي كانت مصدر الدخل الوحيد لعائلتها.

فأبناء العشيرة أصبحوا يجمعون أصداف البحر المتكسرة المسماة باللهجة المحلية «الزِّفْزِف» لبيعها لعمال البناء في غزة مقابل ثمن بخس لا يسد رمق أفواه الجائعين، أما نساء العشيرة فتبدل حالهُّن؛ فبعد بيوت العز والكرم، أصبحَّن يجمعَّن روث البهائم ويرطبَّنه بالماء ليصبح في ما بعد سماداً طبيعيا، ومن ثَّم يُباع إلى أصحاب البيارات في غزة.

لم يتوقفْ قطار التهجير عند مخيم دير البلح، فبعد العام ١٩٦٧ نزحت أم العبد هي وأولادها إلي عمان للحاق بزوجها الذي انضم إلى جيش التحرير الفلسطيني، ومن ثَّم إلي بيروت وبعدها إلى القاهرة ليستقر بها الحال مرةً أخرى في مخيم دير البلح في العام ١٩٩٦.

مسيرة العودة إلى مدينة بئر السبع مازالت تحلم بها أم العبد، على الرغم من استشهاد نجلها قبل حوالي سبع سنوات على أيدي قوات الاحتلال الإسرائيلي، فالرُمَّالة ووادي صَّحان، والطاحونة وبيادر القمح، وبيت الشَعر، والقُطين... كلها أشياء تذكرها وتذكّرها بأرضها التي غادرتها قبل حوالي واحد وستين عاما... ومازالت أجراس العودة تدق في حنايا قلبها.

جدارية في مخيم الدهيشة من رسم أطفال المخيم، نيسان ٢٠٠٨ (المصدر: مركز بديل)



كأس شاي*

بقلم: محمود خليل**

في الليلة الأخير من زيارتنا لبيروت، وبعد يوم طويل من التنقل لرؤية روائع لبنان، أعيا الجوع صحبي. أما أنا فقد أصابني جوع للكتابة، فكان لا بد أن أنقل حمولة ذاكرتي إلى صفحات الورق التي هجرتها منذ فترة. أخذت أقدامي تنقلني ببطئ على رصيف شاطئ «الروشة»، حاملاً قلمي وبضع أوراق، عيناي تراقبان كل العيون التي كانت تعانق صخرة الروشة. امتلأ «الكورنيش» بالعشاق في تلك الليلة التي عانق فيها الهلال الأفق البعيد. اخترت أحد المقاعد المنتشرة ليكون مقري للكتابة، أشعلت سيجارة، أغمضت عيني، وبدأت بالتوحد مع المكان؛ الأصوات وضحكات العشاق التي أضاءت بحر بيروت قناديل من العشق.

كانت الأصوات حولي يعمها الهدوء، لم ألحظ من كانوا يتحركون قربي يحاولون بفضول معرفة ما تخطه يدي على الورق. فجأة استيقظت من غيبوبتي الشعرية بعد أن أنهيت للتو قصيدة بطلاها عروسان كانا أمامي يلتقطان الصور التذكارية بعد حفل عرسهم مباشرة. كانت العروس لا تزال تلبس ثوبها الأبيض... كانا بكل معاني الجمال جميلين... وهبوني من الإلهام ما يكفي لأن أكمل قصيدتي.

يمر أمامي مصور يحمل كاميرا تصوير فورية ويسألني أن يلتقط لي صورة تذكارية. أجيبه نافيا، فيبتسم ويذهب. يأتيني رجل في آخر الستين يسألني إن كنت أود أن أشرب شيئا. سألته أن يعطيني كأسا من الشاي الساخن تدفئني في برودة آخر أيام كانون الأول.

---

*إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠٠٩ في حقل القصص الصحفية.

** محمود خليل: ٢٣ عاما، فلسطيني مقيم في الأردن – عمان.

أسأله عن ثمن الشاي، فيجيبني: «ألفا ليرة». أدفع له من النقود ما طلب، وأعود لأوراقي عَلي أكتب قصيدة أخرى، يقاطعني صوت الرجل ثانية:

– فلسطيني أنت؟

– نعم، أنا فلسطيني وأقطن في العاصمة عمان.

أظن أن علامات الحيرة بدت على وجهي حين سألت:

– وكيف عرفت بأني فلسطيني؟

– عرفتك من لهجتك، من أين الأخ؟

– من رام الله ولدت فيها أيضا، وأنت يا عم من أين أنت؟

– أنا من حيفا، خرجنا منها مع نكبة فلسطين، منذ ذلك اليوم لم أر وطني، وأعيش هنا في أحد المخيمات الفلسطينية.

يشدني حديثه كثيرا حتى أني تركت قلمي وأوراقي، أسأله أن يشاركني التدخين، يأخذ سيجارة، أشعلها له ويبدأ بالحديث:

كنت ابن سبعة أعوام والأكبر في إخوتي، كان لي أخ يصغرني بسنة، وأختان: واحدة عمرها عامان، والصغرى كانت لا زالت بأشهرها الأولى. تبدأ مأساتنا قبل أسبوع من نزوحنا، اجتمع رجال القرية في منزل المختار، اتفقوا على القتال وأنهم لن يتركوا أرضهم بسلام. يتجهز والدي، يودع أمي ويقبل إخوتي، ويقبلني أخيراً ويخبرني بأن أكون المسؤول عن البيت أثناء غيابه.

يضيف أبو محمد: «لم أكن أعلم بأن هذه الكلمات ستصنع تاريخي بعدها».

يتوقف عن الحديث قليلا ليطفئ سيجارته، ويردف قائلا:

يمر يومان؛ لم نخرج أبدا من البيت، نسمع صوت الرصاص في كل مكان. في صباح اليوم الثالث، استيقظنا على أزيز رصاص شديد، ثلاثة أيام لم ننم فيها إلا ساعات قليلة، أذكر أن أختي الصغيرة لم تتوقف عن البكاء طوال ذلك الصباح، أمي أوقدت النار، سخنت القليل من زيت الزيتون لتدلك جسد الصغيرة؛ عل بكائها يتوقف. تبدأ أمي بدهن الصغيرة مرددة بصوت خافت بضع آيات من القرآن لكن

بدون فائدة! استمر صياحها، كل الطرق التي تعرفها أمي ما أثبتت فعاليتها. تمر الدقائق ببطء شديد، أمي تبكي خوفا على أبي الذي خرج منذ أيام. الحال كان جدا صعب، الماء والطعام قاربا على النفاذ، ولا سبيل للخروج من البيت أبدا.

يتوقف عن الكلام يرفع أبو محمد رأسه ويلتفت إلي، تبرق عيناه بشدة وكأن دمعة ستهرب قريبا إلى خده، أسأله أن يتوقف إن كان الحديث صعباً، يومئ إلي بالنفي ويكمل:

مع غروب شمس ذلك اليوم، وإذا باب البيت يدق، يتحول الهدوء إلى أصوات صراخنا جراء الخوف، أمي تتنقل بسرعة لا تدري ماذا تفعل، تمسك سكينا وتقترب من الباب تسأل من الطارق؟ يأتيها صوت خافت: «أنا محمد افتحي الباب بسرعة»، سرعان ما هدأت الأصوات منذ أن رأينا أبي، كان مغبرا، في يده بارودة قديمة، تعانقه أمي وتبكي بحرقة خوف واشتياق.

مع أن صوت الرصاص لم يهدأ؛ إلا أننا نمنا تلك الليلة، يبدو أن وجود أبي معنا أعطانا شعورا من الطمأنينة، أو أن الإعياء الذي أصابنا جراء قلة النوم في الأيام الماضية أوصلنا لهذه الحالة من السكون العجيب.

أستيقظ في الصباح، لم يكن هناك أي صوت للرصاص، أسأل أمي ببراءة: «خلصت الحرب يما»؟ لم تعرني أي اهتمام، كانت تكسر الخبز اليابس وتسخن الحليب الذي حلبته صباحا مستغلة الهدوء الذي حصل. ما أن سخن الحليب حتى رمت الخبز اليابس وطلبت مني أيقاظ أخوتي ليفطروا معنا. يستيقظ إخوتي يدورون حول صحن الطعام ونبدأ بالأكل. لم ألحظ مسبقا أن أبي ليس موجودا، أسأل أمي عن أبي، تجيبني: بأنه عاد ليدعم أخوته، لم أهتم حينها، كان كل شيء هادئا ولم أشعر بالخوف على أبي.

تغطي أمي رأسها بشال أبيض مطرز الأطراف، وتأمرني بأن أهتم بأخوتي حتى عودتها من «حاووز الماء». تخرج أمي وتغلق الباب، تمر الدقائق ونحن نلعب بنوى التمر التي كنا نجمعها.

يعلق أبو محمد مشددا: «ألعابنا كانت جدا بدائية لكنها الأفضل، نحن من نصنعها ونلعب بها»، ثم يردف قائلا:

تمر نصف ساعة؛ تدخل علينا أمي تحمل جرة مياه بيدها، وكومة أغصان يابسة على رأسها. ما أن تضع الأغصان حتى يبدأ الرصاص من جديد؛ هذه المرة كان الصوت قريبا وصاعقا كالرعد. بدأنا كلنا بالبكاء، علا صوت أمي بالدعاء، كانت تختنق في دموعها وهي تدعو «يا رب ترجلعنا محمد سالم غانم». أمي كانت تحضن أختي الصغيرة، تهزها وهي تبكي. ينفتح الباب بقوة، نطلق للصراخ العنان، تجمدت ملامح أمي... لا زلت أذكر تلك اللحظة جيدا وكأن الثواني تمر ببطء شديد، دخل علينا رجل ملثم توقف لحظات قبل أن ينزع لثامه، كان خالي. صرخ بسرعة «لابد أن ترحلوا؛ العدو قريب جدا». صرخت أمي به: لن أتحرك إلا بعودة محمد ويرحل معنا. قال لها وصوته يعلو فوق صوت الرصاص: ليس هناك وقت، لا بد أن ترحلي، تذكري أبناءك، لن يسامحك محمد إن حصل لهم مكروه... تبسط أمي شالها على الأرض، تبدأ برمي ملابس لنا وبضع حاجيات، تلملم شالها وتصرخ بنا للخروج سريعا. تحمل أمي أختي، وتمسك بالأخرى بيدها، خالي أمسكني بيد وأخي باليد الأخرى.

يتوقف أبو محمد عن الكلام لدقائق، كنت متأثرا بما يقول واحترمت تلك الدمعة التي هربت لخده، ما أحببت التعليق بأي قول، كانت دمعته أبلغ من أن أعلق. وتابع أبو محمد:

نزحنا مع من نزحوا، كانت مسيرتنا أول يوم جدا سريعة لنبتعد عن العدو في طريقنا، كنا نسمع عجائب فعائل العدو بسكان القرى العزل، كانت أمي تلاحق كل من يروي القصص، علها تعلم شيئا عن أبي ولكن دون جدوى. كانت حالنا يائسة، نسمع أصوات التسبيح والدعاء...

يقاطعه صوت أصدقائي الذين اقتربوا يلقون علينا السلام، أحاول جاهدا الابتسام، يفهم أصدقائي مني أن يتركونا قليلاً. أوقفهم وأسألهم أن يشاركوني شرب الشاي، يصب أبو محمد الشاي ويقدمه، يشكرونه ويبتعدون عنا. أنظر إلى ساعتي، فيقول أبو محمد وكأنه فهم أني لا بد أن أغادر:

سأختصر لك باقي الحكاية، وصلنا لأحد مخيمات اللاجئين، بقينا هناك شهرين نحاول أن نعلم أي شيء عن أبي دون جدوى. كنا نسأل كل يوم متى سنعود؟ ولا إجابة. بعد سنة على الرحيل واستقرارنا في أحد مخيمات اللاجئين في الضفة، وصلنا خبر من أحد الموجودين بأن أبي أستشهد في تلك الليلة التي غادرنا بها، وبأنه أوصى أخاه بنا؛ إلا أن أخاه استشهد أيضا بعد أسبوع. تنقلنا بعدها من مكان إلى مكان حتى وصلنا لبنان. أمي تزوجت حين بلغت الحادية عشر، وبعد أشهر من

زواجها طردني زوجها وعشت في مخبز كان قريبا. عملت فيه مقابل نومي وطعامي، حتى وصلت العشرين اشتغلت مراسلا في إحدى مدارس وكالة غوث اللاجئين. تزوجت ولم أنجب أطفالا، أما عن كنيتي فعلى أسم والدي.

سألته عن إخوته، فأجاب: «الصغيرة ماتت قبل أن تتم السنة بالحصبة التي انتشرت في المخيم، أخي يعيش في سوريا أراه بين الحين والآخر، أختي تعيش معي ومع زوجتي بعد أن توفي زوجها».

تنطلق الدموع من عيني أبو محمد اللتين كحلهما الزمان بالتعب والشقاء، ليس لأنه عاص للرب، وليس لأنه كان شقيا، بل فقط لأنه فلسطيني.

ينهض أبو محمد، لم يلق السلام، كأن شبح الذكريات سلبه عقله، أقف أتابع رحيله العجيب، ألملم قطرات الحزن التي تبعثرها مسيرته أينما ذهب.

تشدني قدماي إلى المشي حتى الحاجز الحديدي الذي يفصل الكورنيش عن البحر، أعود أتأمل الأفق البعيد، تجوب أسئلة وأسئلة في عقلي المكتظ بالأفكار، أتساءل وأنا بنهاية كانون الأول؛ ألم يحن الوقت لأن نخلع عنا رداء التشرد ونتعطر بمسك العودة؟ طال الشتاء كثيرا في بلدي فأيا شمس أطلعي، فلبلادي بعد الشتاء ربيع، ولشعبها بعد الغياب عودة، ولأبي محمد شاهد قبر في بلده.

سلام عليك «أبو محمد»، وعلى المشتاقين لفلسطين وترابها حتى العودة.



الجيل الأول للنكبة الفلسطينية، مخيم العزة، بيت لحم، كانون الأول ٢٠٠٧ (المصدر: www.flickr.com)

سجّلْ، ذاك هو الفلسطيني*

بقلم: محمد عثمان**

الظلم، النكبة، واللجوء فالاحتلال... الشهداء والجرحى... هي كلمات باتت بلا شك السمات الأساسية والافتتاحيات المميزة لقاموس المصطلحات الفلسطينية، والتي تتجسد يوميا على أرض الواقع. القصف والتجريف، الاجتياح والاغتيال، الخيمة والعراء... انه مصير شعب أعزل بأكمله كان ولازال تحت النار، قدره مع احتلال لا يرحم بشرا أو حجرا أو شجرا. هي القسوة بكل ما للكلمة من معنى ودلالات؛ معان ودلالات جعلتنا نسافر إلى ذلك الحزن المميز الملامح، والذي يشوبه شيء من ذرات الفرح، وشيء من الحنين. لا أدري إن كانت هي الأرض هكذا، تارة تجعل مني فتى صغيراً يحمل قنديلاً، وتارة تبكيني فتجعل مني طفلا جاوز الستين! لحيظات صغيرة تجعل أطفالنا يغفون كوطنهم على حجر، وومضات أخرى تجعلهم يحترفون ملامسة الجراح والكتابة على الجدران الرطبة بما يجول في خاطرهم.

وما يجول هو بضع حروف متراصة باللون الأحمر «تحيا فلسطين»، وآخرون يتقنون فنون الرقص على هدير الدبابات، أي شريعة سماوية تجعل من الجلاد ضحية؟! وأي سماء تمطرنا بهذا الكم من الصواريخ؟! البحر والسماء، نعم! ندّان، وقد كانا يوما ما متحابين. البحر يغمز السماء فتتورد خجلا، واليوم تتورد شاءت أم أبت، لتلقي على البحر كل أنواع القنابل، والبحر قد منح «هدى غالية»*** قتلا وقتلا... يا بحر، كن ولو مرة لي، يا رمل، كن ولو مرة بلدي...

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠٠٩، حقل القصص الصحفية.

** محمد عثمان: طالب جامعي (كلية الإعلام)، رفح- قطاع غزة، مراسل متطوع لدى العديد من المحطات والمواقع الالكترونية.

*** هدى غالية: الطفلة الناجية الوحيدة من مجزرة الشاطئ حزيران ٢٠٠٦ التي راح ضحيتها سبعة من أفراد أسرتها اثر تعرضهم للقصف الحربي الإسرائيلي.

ما أصعب الظلم الذي يقع ويتجدد على الأبرياء دون وجه حق لعدة مرات ودون أن يكون هناك من يقف في وجه الظالم! وما أفظع هذا الظالم والمتجبر حينما يتمادى في غيه ويسلب الحق تلو الحق دون أن تثنيه عن ذلك كل الشرائع السماوية والأرضية ويصبح المظلوم لاجئا ومنكوبا! فما أسوأ تلك الصورة التي ترسمها كل تلك الظروف بدماء الشهداء والجرحى!

وفي المقابل، ما أجمل صورة المظلوم حين يتشبث بحقه إلى أبعد مما نتصور؛ إلى حد انه قد يدفن تحت بيته حتى لا يخرج منه كما خرج في السابق لاجئا ومشتتا في كل بقاع العالم، حتى لو قصف بيته مئات المرات وأصبح مصيره إما خيمة بسيطة لا تقيه برد الشتاء القارص أو حرقة الصيف القاتلة، أو حتى العراء الكامل، أو حتى تعرض لاغتيال... انه الفلسطيني؛ الفلسطيني في كل الأرض الفلسطينية.

صور كثيرة رُسمت بتلك الطريقة ما بين السيئ، والذي يدعو إلى الاشمئزاز من ظلم العدو الإسرائيلي وعنجهيته، والشيء المشرق الذي يدعو إلى الاعتزاز كصمود الشعب الفلسطيني المقهور الأسطوري بألوان تتراوح ما بين الأسود والأحمر الغامقين ولا ثالث معهما وكل منهما له دلالاته الخاصة.

الحاج «أبو محمد أبو طه» رجل ثمانيني، صورة ارتسمت بمزيج من النكبة والصمود. النكبة في صورة طرده من بيته من مدينة يافا في العام ١٩٤٨م، والصمود لأنه أبى أن يخرج مرة أخرى من بيته وأرضه التي لجأ إليهما في مدينة رفح بعد نكبته حتى لا يكون فريسة سهلة وسائغة في كل مرة حسب رأيه. هو صورة ارتسمت أيضا بكل معاني العزة والفخر والكبرياء مختلطة بالحزن. في الحرب الإسرائيلية الأخيرة على قطاع غزة، كان له موعد مع محاولة تجديد نكبته من قبل دولة الاحتلال الإسرائيلي لكنها لم تنجح؛ لأنه بقي صامدا على تلك الأرض، ولم تخرجه صواريخ ودبابات الإسرائيليين إلى ارض أخرى يلجأ إليها مرة أخرى حتى ولو كانت مدينة قريبة من رفح.

يجلس على ركام بيته الذي دمرته الطائرات الإسرائيلية في تلك الحرب عن بكرة أبيه، يردد القصص والذكريات عن أيام ذهبت، ويربط الماضي بالحاضر، ويقارنه، ويقول: «أنا تهجرت في سنة الثمانية والأربعين وكان عمري حوالي ٢٥ سنة واحتلونا اليهود في سنة السبعة وستين، لكن في هاي الحرب قررت رغم كبر سني ما بيهجروني من منطقتي ولو على جثتي ...» .

وهذا ما كان له رغم قصف بيته المجاور للحدود المصرية مع قطاع غزة، إلا أن الإسرائيليين لم يستطيعوا ثنيه عما عزم عليه وهو البقاء في بيته حتى لو على أنقاضه.

الخوف والرعب واحد من الأسباب التي جعلت الفلسطينيين ومنهم أبا محمد يخرجون من أرضهم في العام ١٩٤٨م، أما اليوم فإنها العزيمة ورفض الذل حتى لو كان الثمن الحياة، هي التي جعلت أبا محمد والكثير غيره متمسكين في أرضهم وفي بيتهم. ويسترجع أبو محمد أيام النكبة مقارنا إياها باليوم فيقول:

اليهود كانوا زمان بيخوفوا وبيقتلوا علشان يحتلوا الأرض ويسكنوا فيها، لكن اليوم بيقتلونا في منازلنا وبيهدموا منازلنا في الأراضي اللي هاجرنا إليها، وبدهم إيانا نهرب منها بس أنا باقول هيهات منا الذلة.

يأتي أحد أحفاد أبي محمد، ويبدو عليه انه في العشرينيات من عمره، يأتي إلى جده والينا ونحن نتحدث عما يجري اليوم من نكبة جديدة، وعما جرى بالأمس البعيد، وجده يجلس مازال على ركام بيته وتعلوه خيمة كالتي كانت في العام ١٩٤٨ مصيرا للجد والأهل فيقول مقاطعا ودون أن يعلم ما هو موضوع الحديث أن جده عندما هجر اثر النكبة نصب خيمته بعيدا آلاف الكيلومترات عن منزله المحتل من قبل عصابات الصهاينة، أما اليوم فكما يقول: «لي وله الشرف أننا كنا وما زلنا صامدين فوق أنقاض منزلنا المدمر ولم ولن نذهب بعيدا عنه».

أسير مع أبي محمد في الشارع المؤدي إلى المكان الذي كان فيه بيته، والذي أصبح فيما بعد ركاما، وفجأة يخرج من جيبه مفتاحين: الأول منهما من الطراز القديم والآخر مفتاحا يبدو انه حديث فيقول لي ممسكا بالمفتاحين: «هذا مفتاح بيتي في بلدتنا يافا التي هجرنا منها وهذا الآخر هو مفتاح بيتي الذي كنت تشاهده وقصف حديثا في حرب غزة». وهنا يكمل لي بأن الاختلاف الوحيد هو في شكل المفتاحين فقط».

بمقياس العمر والصحة، أبو محمد كبير هرم، ولكن هذا لا ينطبق على ذاكرته الحية مخزن كل صغيرة وكبيرة، حتى انه يذكر أن المرحومتين والدته أم شاكر، وزوجته حليمة، وقبل ساعة من بطش العصابات

الصهيونية المسعورة كانتا تجهزان «المفتول»؛ وهي الأكلة الشعبية المفضلة لدى أهالي الشام بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص. ويقول: «لما طلعنا من البيت كان المفتول مثل ما هو ما اكلنا منه ولا شي وتركناه على أمل انه نرجع للبيت تاني، ويا للعجب! قبل ما يتم تبليغنا بقصف المنزل في حرب غزة كنا طابخين كمان مفتول!

الليلة الأولى التي قضاها أبو محمد وعائلته وأبناؤه المتزوجون، والذين يقطنون جميعا في نفس البناية بعد أن تم قصفها بشكل كامل، لم تكن لتشبه تلك الليلة الأولى التي قضاها هو وأهله أثناء النكبة. فحين يتحدث لنا أبو محمد، نشعر بنوع من المرارة القاسية والغريبة... فكما يقول: «في ليليتين غابرتين خرجنا، ففي الأولى كانت النكبة لم نعد إلى بيوتنا على أثرها وأصبحنا لاجئين، وأما الليلة الثانية فهي في غزة وأصبحنا لاجئين بعدها ولكن بجوار بيتنا المقصوف».

سألت أبا محمد عن السبب الذي أعلنته دولة الاحتلال الإسرائيلي كحجة لقصف «بنايته» المكونة من بيته وبيت أبنائه السبعة، فرد بسؤال: «ماذا كانت حجتهم عندما هجرونا واغتصبوا أراضينا وبيوتنا في يافا وحيفا وعكا واللد والرملة»؟ حينها عقد لساني ولم استطيع الرد عليه؛ ليس لأنه لا يوجد عندي الرد وهو الادعاء بالدفاع عن النفس؛ بل لأنني قد تركت لنفسي المجال بأن أسال عن حجتهم وأنا اعلم علم اليقين بان الصهاينة، منذ ما قبل اغتصابهم لأرض فلسطين، وهم عدوانيون من اجل العدوان واغتصاب الأرض ليس إلا.

نعود أنا وأبو محمد معا إلى ركام بيته بعد مشوار طويل ونحن نتحدث أثناء سيرنا بنشاط في الشوارع القريبة من بيته، فيحمل جزءا من حجارة بيته ويقول لي:

أليست هذه هي حجارة؟

بلى! إنها حجارة.

وحجارة بيتي في يافا مثلها...

ويحمل حفنة رمل ويسألني مرة أخرى:

أليست هذه رمال كالتي توجد في يافا وفي كل المدن الفلسطينية؟

نعم!

فيقول لي وبعض الدموع بدأت بالتساقط من عينه:
إنها جميعها ارض فلسطينية وهذا بيتي كالذي اغتصب في يافا، ولكن أتمنى أن أتنشق هواء يافا يوما ما ومن ثم أموت وادفن فيها وهي مسقط رأسي...

وساعتها أيقنت أن الحساب لا يكون بكبر وجمال البيت والأرض، ولا حتى بحجم الدموع القليلة التي تنهمر من الرجال الرجال كأبي محمد، وإنما بحسابات العاطفة الجياشة والذكريات الجميلة، والتي قد تكون فقط موجودة لدى من فقد بيته وأرضه مثله وغيره الملايين من الفلسطينيين الموزعين في كل بقاع العالم من أقصى شمال الكرة الأرضية حتى أقصى جنوبها.

قبل أن ينفض مجلسي معه تحت خيمته، أخرج أبو محمد قدمه من تحت «الجلابية» التي يلبسها، وإذا بها قدما اصطناعية. كان وقع المفاجأة عليَّ كالصاعقة، ليس لأنه فاقد لقدمه، وإنما لأنني لم اشعر لو للحظة واحدة منذ البداية بذلك، وهذا ما قلته له. فأجابني بفلسفة هي كانت سمة حديثي معه منذ البداية انه قد يكون كبر بالسن ولكن همته قوية وما زال ينتظر ذلك اليوم الموعود والذي يذهب فيه إلى بيته في يافا مشيا على أقدامه التي أكلت إحداها قذيفة دبابة أصيب بها في بداية الانتفاضة في العام ٢٠٠١ في قصف عشوائي بالقرب من منزله الحدودي في مدينة رفح.

هكذا كانت تفاصيل الصورة، ولا زالت مستمرة وتتجدد ألوانها بطلعة شمس كل يوم، مختلطة بالقدم والحداثة، والتاريخ يكرر نفسه فيها كل يوم. فما كان في الأمس البعيد يتكرر كل يوم، ولا يوجد فيه فرق سوى الأداة والأشخاص الذين ينفذون دون تغيير في العقلية الإسرائيلية.

وهكذا ينتهي الحديث ولا تنتهي الصورة من التجدد، ولا حتى القصة تتوقف. ويستمر الكابوس الحقيقي مناديا على التاريخ بأن يسجل ها هو الفلسطيني يجلس في تلك الصورة ومعنونا اسمه بالبنط العريض على تلك القصة المتجددة !

فلسطينية تحاول منع اقتلاع أشجار أرضها بغية مصادرتها، قرية سالم بالقرب من نابلس. ٢٧ تشرين الثاني ٢٠٠٥.
(تصوير: عبد عمر قصيني)



العتبـة*

بقلم: خضـر مناصـرة**

يجلس محمود على عتبة بيته الخارجية على كرسيٍّ ضامر، ينقل حبات المسبحة بين يديه، وكم هي المرات التي عض سيجارته بحنق، أو نسيها تموت وحدها على حافة المنفضة. تنهد عميقا ثم قال:

عملت في العطلة الصيفية سلّالا (حمّال) في مدينة عمّان، فمن أسواقها أحمل الأغراض إلى جبالها المعلقة والنكدة؛ مثل الويبدة والحسين، أو أسير في شعابها؛ مثل وادي عبدون الممتد. كنت حمالا اعمل بقروشٍ معدودة وثمنٍ بخس. وفي المساء، نسقط أنا وإخوة الشقاء كأوراق الخريف في غريفة صغيرة، عنوانها العرق العفن، نجتر تسولنا المؤدب!!

في صباح أحد أيام حزيران لعام ألف وتسع مائة وسبعة وستين، يقف أبي بالباب، حيث كان يعمل بائعاً متجولاً في الأردن، ويقول لي: يجب أن نذهب للغور لاستقبال العائلة الآتية من بني نعيم!!

وصلنا؛ وإذا بالمكان يملؤه الضجيج... عمّال يبنون خياماً مختلفة الأحجام والألوان، أوتادها وحبالها تتداخل وتتعارك، الناس تتحرك يمنة ويسرة وفي كل الاتجاهات في مخيم الشونة الأردنية للنازحين. وصلت شاحنة أبي ربيع، وهو الذي حمل ونقل بعض سكان القرية مع أثاثهم وحسراتهم وانكساراتهم بعد نكسة سبع وستين، ثمّ رماهم شرقي النهر طواعيةً وخوفاً! تكدست زوجة أبي وإخوتي وشقيقي يحيى على (الترك) الشاحنة، ترفرف شارة الصليب والعلم الأزرق للأمم المتحدة على الخيام، وعلى شاحنات التموين ولباس الموظفين حتى بطاقات (الصّندقة) زرقاء... لون مقيت...

أمي لم تأت! لماذا؟ لأنها فلاحة فلسطينية حقيقية، عشقت التراب والمحراث والزعتر... أودعت سائق الشاحنة وصيةً قالت فيها:

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠٠٩، حقل القصص الصحفية.

** خضر مناصرة: معلم لغة انجليزية في مدرسة قرية بني نعيم الثانوية، صاحب كتاب "انتفاضة قلم"، ٢٠٠١.

لن أغادر بيتي لأعيش في خيمة أو أموت في الطريق. حول داري، أشجار التين الشابة تتربع في حاكورة صغيرة؛ حوالي ثلاثون تينة أو يزيد، فالتين والعنب غذاء الصيف، وكما يقول المثل الشعبي: يوم التين ما في عجين. يعز عليَّ زوجي وولداي محمود ويحيى، الذي علّق نفسه في الشاحنة كقطعة أثاث، ليغير بوصلة عاطفتي في البقاء أو الخروج، لكن حب وطني أكبر... كيف أسافر؟ ومن يجلس على الصخرة الكبيرة أمام المنزل ويغني لدجاجاتي عصراً زجلية (كش كش تعِش، في بيض ولا فِش...). أما اللوزة الضخمة التي تظلل بأغصانها خيمة خضراء، ألقي بحنان وسارة وخضر تحتها وألحق بعمي (حماي) أزرع وأقلع و... قريتي شبه صحراوية، ولكن عام سبع وستين كان استثناءً. لعلها صرخة تنادي أهل الأرض بأن يثبتوا في هذه البقعة الطاهرة، التي التجأ إليها سيدنا لوط عليه السلام، هرباً من ذنوب قومه وسخط ربه، وما زال ضريحه فيها. تقضم الصحراء أجزاء كبيرة منها، ولكن ما بقي من سفوح جبالها الشرقية يعانق السد الصخري الوعر للبحر الميت، أهلها يهربون، ولكن هي لن ترحل، وأنا خميرة باقية من عائلتي الشاردة!!

حياة المخيم وما أدرك ما حياة المخيم؟! ويضيف محمود:
الرجال كانوا نهاراً يأكلون من فتات مركز الصليب، ويشربون الماء الذي نختلسه من القنوات الزراعية، ثم يعمدون إلى لفافات التبغ (الهيشة) ينفثونها حقدا وعجزا... تخرج من صدورهم فترتطم في سقف الخيمة ثم تعود...

تسكن المنطقة قبيلة العدوان، والتي كان لها من اسمها حظ كبير، يريدون الماء لسقي مزروعاتهم ونحن لسد حاجاتنا، تبدأ المعارك شفويا بالكلام والسباب ثم تتوالى الشتائم:
«عَشَرَه عَشَرَه عشرين... باع اللاجئ فلسطين،
وكمان عشره عشرين... بسمنة وعلبة سردين...»

وللوعظ والإرشاد نصيب، لماذا خرجتم من أوطانكم يا...؟ هل بعتم فلسطين لليهود وجئتم تقاسموننا عيشنا ورزقنا؟ عودوا وارحلوا... وفي الليل حروب طاحنة، نتقابل معهم كأشباح، نحن نحتطب من البساتين وهم يمنعوننا.

ثم يضع محمود يده على رأسه...
آه! يومها شجّ رأسي بحجر طائش... جرح كبريائي! هل جئنا هنا نشاطر الآخرين حياتهم؟ ثم نبكي حسرة ونلعن اليهود! لماذا يكرهوننا؟ حتى في بلادنا زمن النكبة الأولى عام ثمانية وأربعين كان «الوطني» ينهر حماره قائلا: «حِي وجهك زي وجه اللاجي». كنّا إذا أوينا إلى الفراش نسمع صراخ

الجيران، وهم كذلك لا فرق. وكما قال الشاعر عرار:

الكل زط مساواة محققـــة   تنفي الفوارق بين الجار والجار

من لا يسكن في داره لا يحبه الناس، ويتقيأون على صدره حقدا وغضبا... ومكثنا أياما طوال دون أن يزور أجسادنا ماء الاستحمام، والعرق المالح في صيف الأغوار يتصبب على أرنبة أنوفنا، ونلعقه!

يرفض والدي الخروج من المخيم في أي اتجاه! أهمس إليه ويجيبني: أسكت يا ولد. فانتفض قائلا: يا أبي نحن لسنا حملا ثقيلا على أحد، نتلوّى من الحرمان وعندنا بيت ووطن وبيدر... لنا تاريخ حده الزمن، وجغرافيا لا تتسعها بطون الكتب. بعد أيام وشهور وسنوات سندرك متأخرين أننا صغنا المأساة وصنعناها.

أجلس مع نفسي... من أنا؟ أنا مشرد بلا عنوان... أنا ذرات تراب طارت مع الريح وكل التراب بقي، وأمي... أمي كل الشجر تجذّر في أصله، وأنا حجارة تحنطت وتخطاها الزمن. يجب أن أكسر الوهم المسمى حدودا. قررت، ضد إرادة أبي، ألا أكون ابنا للخيمة! أن أصير مواطنا تحت حكم الاحتلال، خير من أن أعين أميرًا لبئر نفط عربية! وفلسفة التاريخ باقية تقول: بأنه لن يغفر التوطين جريمة التتر!

في طرف قرية الشونة من جهة الجنوب يترصد (مقهى حنا)، ويتلقف العائدين والنازحين والمتسللين، يقتات من الدم النازف والهزيمة. يجلس الكثيرون يحتسون الشاي والقهوة مدفوعة الثمن، حيث أن الجلوس على الكرسي هو عتبة فاصلة يبعدك عن الشارع والساحات القذرة!

توقف عن الحديث لأنه تعب. وفي اليوم التالي، جلسنا على عتبة البيت الداخلية، فأكمل محمود حديثه قائلاً:

هربت من المخيم وللأبد! جلست أتقصى الأخبار، علمت بأن مجموعة من الرعاة يقودهم رجل أربعيني، أسمر البشرة، جاد، فيه سمات القائد، اسمه مصطفى أبو حسين،*** يعتمر كوفية فلسطينية أرضيتها بيضاء وفيها نقط سوداء كالأسلاك الشائكة! سوف يعبرون هذا المساء النهر المقدس غربا، وهم خمسة شبان وأغنامهم. توجهت إلى الزعيم وحدثته: أنا محمود يوسف من قرية بني نعيم أريد... تعثرت الكلمات ولكنها عادت تنطلق: أريد أن أعود. فأجاب: أهلا بك، أنا مصطفى أبو حسين. أنا من

*** استشهد مصطفى فيما بعد عام ١٩٦٨م

قريتك، ولكن الموضوع فيه مخاطرة ومسؤولية كبيرة لا يتحملها إلا أولو العزم. قلت له: يوجد معي دنانير أردنية، ابتسم ابتسامة باهتة: لا أسألك عن ذلك...

قبل العرض مترددا، أو... أما أنا فتملكتني نشوة التوفيق، وحبست فرحتي...

انطلقنا نحاول جاهدين الإمساك بالشمس الهاربة خلف الجبال الغربية، وصلنا مساءً حافة النهر، الساعات تمر ببطء، تكاد تتوقف. وتحاورني ذاتي وهاتف من بعيد، هل تلد لي هذه الليلة وطنا؟ تسلل أبو حسين بعد منتصف الليل ورمى حبلا إلى الجهة الأخرى من الشريعة (النهر)، فيه مرساة، أمسكت بشيء ما عند الطرف الآخر، ثم وضع عصا طويلة بشكل عمودي، هذه مخاضة (مستوى الماء حوالي متران)... دفع بنفسه بقوة الرجال، حيث الماء هادئ الانسياب، وأنا أراقبه أخاف أن يغرق، وأبتلع ريقي خوفا من مصيري الآتي. وقت قصير... لقد وصل، الله الله!! لا يفصلني عن فلسطين سوى أمتار ودقائق. الزمن والمسافة وأنا ثلاثية محكمة الترابط، بعد وصول «أبو حسين» ربط الحبل جيدا بشجيرات الدفلى التي تحتضن النهر ثم سبح الرجل الثاني والثالث وتمترس الرابع في الوسط.... هنا تحركت ساعة الزمن الجامد، جاء دوري، أمروني بالنزول وأنا لا أعرف فن العوم.

أمسكت الحبل وأغمضت عيني، لمست قدماي الماء فارتعشت من شدة برودة الماء ومن الخوف. يداي ترتجفان، أكاد أنزلق إلى...؟ وأسناني تصطك، يتوارى جسمي شيئا فشيئا حتى ترقوتي، الرجال يستحثونني، هيّا... لحظات وتنجو أو... يسحبك النهر إلى البحر الميت... هيّا «من يطلب الحسناء لم يغله المهر، فلسطين تساوي الكثير... دقيقتان وبضعة أمتار تبعدك عن فلسطين...

ما أصعب هاتيك اللحظات! وهي عتبة وحدّ للوطن. وأخيرا وصلت، وطأت ثراه، لفح وجهي هواء بارد وانتفضت كدبّ قطبيّ فقد فراءه، ما أحلاها من هزة وما أحلاها من ساعة! تعجز الكلمات أن تكتبها أو تؤرخها. الآخرون يدفعون المواشي فيتلقفها الوسيط ثم يرسلها للمجموعة القابضة على الطرف الآخر حتى آخر شاة... أوقدوا نارا لا أدري لي أم للشياه. غاصت حرارتها إلى داخل عظمي. في هذه الرحلة عرفت معنى الانضباط والخوف والموت والحب! ثمّ أخذنا نجد الخطى حتى وصلنا وادي الباذان فنابلس صباحا، فكل غائب يعود، حتى الشمس الناعسة عادت مرة أخرى. كان لا بد من الفراق فهذه المجموعة لها هدف ولي طموح. أوصاني أبو حسين أن ابلّغ تحياته لمسجد لوط عليه السلام وبير الشركة (وسط القرية) وكل حجر في قريتي النائمة بين قبور الأنبياء.

هذا العبور المعاكس...أيقظ بداخلي ماردا نائما اسمه العودة والرجوع دائما!

في اليوم الثالث جلسنا تحت شجرة أسكدنيا صغيرة، فقال محمود:

هذه الشجرة الصغيرة زرعتها في عام أربعة وتسعون وتسعمائة وألف للميلاد، بعد عودتي إلى أرض الوطن على اثر اتفاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية و» إسرائيل«... وكم هي المرات التي وقفت بها على عتبة الألم الفلسطيني! ولكن ما يبلسم أمسي وحاضري أن غبار التراب الفلسطيني ألمسه على جبيني، ويداي طليقتان، وقدماي مغروستان في طينة أرضي، وثمري أينع في أرجاء المعمورة ككل الفلسطينيين. فالمهندس وسام، ابني في بلاد الزيت العربي الرخيص، وشقيقي يحيى يبني ناطحات سحاب في الأردن، وابنتي فاطمة أم للنشئ في لبنان، وتزخر البرازيل برجال الأعمال ومنهم أقربائي وأبناء خالتي، وخالي المحاسب يرتب دفاتره بجانب الحرم المكي، وأبناء عمي عرفوا طريق الحرير إلى الصين، وفي كل زاوية من هذا الكون رائحة أو عبير فلسطيني... لهم جميعا عتبة يعبرونها إلى بلد الإسراء والشهداء.

سألته هلا حدثتنا عن أيام خوال في الوطن الكبير؟! فأجاب محمود: غدا إن شاء الله، وكأنه يريد أن يستذكر أكثر الصور إيلاما...

وفي اليوم الأخير من اللقاء المتجدد، بينما كان الكهل يمرر أصابعه بين شعيرات ذقنه قال:

هذا هو الوطن الذي تعجز رواية أو أسطورة عن احتوائه. بعد الثانوية العامة، تخطيت كل الحواجز وامتشقت بندقيتي عنيدا، من جرش إلى صيدا، ارتحلت و... ثمّ كبلت في معسكر أنصار عشرون شهرا، عشت في غابة البنادق والمقاتلين، لبنان الأرز والروشة وبيروت الحصار ومغدوشة المقاومة. تزوجت من امرأة لبنانية شربت معي التشرد أقداحا من الترحال والهوان، من لبنان إلى اليمن فالجزائر ثم مصر والأردن... أخوة العروبة... إيه حتى أخوة العروبة عبثوا في شتاتنا! فما زلت أذكر صحراء السّارّة في ليبيا، حيث كنّا نعيش في معسكر للقوات الفلسطينية مدفوع الأجر كحاجز وساتر بشري بين القوات التشادية والليبية المتصارعة.

ينفث الهواء بعيدا قائلاً:

أوووف، ترى هل لزم أن نصير أقصوصة نحكيها على الأعتاب حتى يعطف علينا العالم؟ وهل توجب أن نوصف بالغرباء والمسافرين والمهجرين والمنفيين حتى تحسب لنا قضية؟ وهل صراع مئة سنة وآلاف المعذبين والمفقودين والجرحى والأسرى والشهداء هو كاف حتى نشهد ميلاد دولتنا وانبعاث قدسنا؟


لوحة تشكيلية للفنان الفلسطيني الراحل إسماعيل شموط

تذكار من الإثمد أو الدمع الأسود*

بقلم: رأفت العيــص**

قرابة ثلاثة عقود وهي تدور من بيت لبيت، وتجوب أحيانا بعض القرى المجاورة، تحمل عبوات الإثمد «الكحل» وتروِّج بضاعتها بكلامها الدافئ: «من أجل عيونكم يا صبايا ومن أجل أطفالكم الصغار... هذا الكُحل فيه سر ورثته عن جدتي رحمها الله ولا يعرفه أحد غيري».

بضاعتها من الكُحل والتي كانت تحضِّرها بيديها، لبّت رغبة النساء اللواتي كن يشترينه لهن ولمواليدهن الجدد «لتكبيس» العين والصُرّة. والداية بدورها كانت تشترط توفيره مع بقية الأغراض التي تلزم المواليد.

لم تكن تتقاضى أم محمد بعض الأحيان ثمن الكحل، خاصة لزبونة جديدة لتكسبها بصورة دائمة؛ فقد كانت تشعر بالسرور عندما تكتحل النساء بما تصنعه يديها؛ هي نفسها كانت تظهر مكتحلة العينين حتى بعد أن تقدمت بالسن.

نالت أم محمد شهرة واسعة بكحلها الذي يشفي العين من مرض الرمد وغيره من أمراض تصيب العين. وكانت النسوة يبحثن عنها إذا ما تغيبت عنهن بعض الوقت، للحصول على الإثمد الذي يحمل الأسرار العجيبة ويضفي على العيون جمالا ولمعة.

---

* الاثمد: الكحل العربي. والقصة هي إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠٠٩، حقل القصص الصحفية.

** رأفت العيص: بكالوريوس علم اجتماع (جامعة بير زيت)، دير الغصون – قطاع غزة.

ممرض القرية، الذي كان يعمل أخصائياً لكافة الأمراض، تعاون معها وأخذ يحتفظ بعبوات البنسلين الفارغة التي أصبحت العبوة المثالية للتعبئة.

ولازدياد الطلب على بضاعتها، كانت تذهب إلى المدينة طالبة من الأطباء العبوات الفارغة، وبدورهم أصبحوا يحتفظون بها لحين حضورها. لم تُقصِّر أم محمد معهم، فقد كانت تهدي كل واحد منهم في كل زيارة عبوة من الكحل لنسائهم. علاقة الأطباء بها لم تخلُ من المزاح، فقد كانوا يقولون لها: أنت لن تتركي أي باب رزق لأطباء العيون يا حاجة. فترد والابتسامة لا تفارق وجهها: «الرزق على الله يا ابني».

كان ما تجنيه من بيع الإثمد، إضافة إلى بعض ما تزرعه من بقوليات وقثائيات، مصدر رزقها بعد مرض زوجها ووفاته، فقد ترك لها عائلة من عشرة أنفار، متكدسين بالبيت القديم المتواضع. كافحت من أجلهم ولم تمد يديها لأحد حتى اشتد عودهم.

أجبرت جميلة نزال على الرحيل مع عائلتها وكافة سكان قريتهم السنديانة الواقعة قضاء حيفا، وهي ابنة ستة عشر عاما. واستقر أفراد عائلتها مع كثير ممن هجّروا بقرية دير الغصون وغيرها من القرى المجاورة.

كانت حالة الناس في تلك الأوقات صعبة، ولم يجد اللاجئ الفقير الذي خرج صفر اليدين من أرضه، ما يقتات به بعد أن استنفذ كل ما بحوزته من المدخرات القليلة التي أستطاع حملها.

مات والدها قهراً بعد سنة من النكبة، لتزداد معاناة الأسرة، التي لم يتجاوز أكبر أبنائها العشرين عاما.

تزوجت جميلة من رجل يكبرها بخمسة وعشرين عاما، ولم يكن عمرها آنذاك يتجاوز ثمانية عشر عاما، كان زوجها رجلا فقيرا؛ إلا انه عرف بشهامته، ولم يكن يملك سوى بيت قديم متواضع وبضعة دونمات من الأرض. زوّجتها أمها لأنها كانت تريد حماية رجل شريف، بعد أن شد ابنها الأكبر عصا الترحال للبحث عن عمل والخروج من الضائقة التي تعاني منها الأسرة.

بعد عدة سنوات، سافرت والدتها وأشقاؤها إلى الكويت، ملتحقين بالابن الأكبر الذي وجد عملا واستقر هناك، لتكتمل حلقة غربتها وتنقطع نهائيا عن أي قريب لها، إلا من أبنائها السبعة وبناتها الثلاث، الذين

عوضوها عن الغربة والتشرد. هكذا كانت تقول أم محمد: «أبنائي هم سندي بالدنيا، هم أهلي الذين انقطعت عنهم»؛ لذلك فقد حمل بعضهم أسماء والدها وأشقائها.

بعد سنين من النكسة، وتحديدا عام ١٩٨٥ عثر عليها أحد أبناء خالها المقيم بالفراديس، وهي قرية عربية مأهولة تقع جنوب حيفا. عندما قدم لزيارتها هو وزوجته وأبناؤه كانت فرحتها تملأ الدنيا وأطلقت يومها زغرودة وسط الدموع.

–

حدّث ابنها عمر قائلاً:

كنت معها عندما اصطحبنا أخوالي وحسب رغبة والدتي، بجولة إلى أراضي السنديانة. هناك أخذت تصيح، هذي أرض أبوي اطلعوا منها يا كلاب، وحاولت النزول من السيارة لمهاجمتهم، مما اضطر الجميع العودة دون إكمال الرحلة.

أم محمد لم تحتمل أن ترى الأرض التي غادرتها بريعان الصبا وشاركت أهلها بزراعتها، يسكنها أناس أغراب، وهي تعاني الفقر والفاقة، ولا تملك سوى بيت صغير وقطعة أرض لا تتعدى بضعة دونمات تركها زوجها الراحل.

كانت رحلتها إلى مسقط رأسها نقطة تحوُّل بحياتها. فقد نكأت تلك الرحلة الجراح وألزمتها البيت فترة طويلة، ولم تفارق الدمعة عينيها أشهراً بعد تلك الحادثة. أم محمد التي كانت تكتحل بالاثمد كانت عندما تبكي ينزل دمعها أسود من عينها. كانت تمسح الدموع بطرف «خرقتها» البيضاء التي صبغت بالسواد من كثرة البكاء.

تعافت أم محمد من علتها بعد تلك الرحلة، واستأنفت تحضير الكحل من حجارة الاثمد، وعادت تتواصل مع الأطباء الذين افتقدوها فترة طويلة ورحبوا بعودتها.
اكتفت أم محمد بتوزيع الاثمد على الجيران والأصحاب. وكانت ترفض أن تتقاضى الثمن فقد كبر أبناؤها ولم يعد يعوزها شيء من متاع الدنيا. كانت تقول: «الكحل جزء من حياتي. ولا أريد أن أحرم من يحتاج إليه. ولا تنسوا بركة يدي، وادعوا لي بأن يرد الله ابني الغائب».

كان أحد أبنائها قد سافر من أجل الدراسة، إلا أنه التحق بالعمل الفدائي، وانقطعت أخباره عدة سنوات، حتى أخبرهم أحد الذين التقوا به بأنه حي يرزق وصحته جيدة.

أم محمد تلك المرأة المكافحة، كثيرا ما كانت تشعر بالحنين لقريتها السنديانة وكانت تحكي قصتها دائما، وأنا بدوري سمعتها أكثر من مرة. بكلامها كانت نبرة حزن تثير الأشجان كانت تبدأ كلامها:

ساق الله على ريحة البلاد، أيام كنا نزرع البندورة والبطيخ والشمام والقمح والذرة... بعين الميته (نبع مياه قرب القرية) حبة البندورة كانت «ملاة اليد»، أرض كلها خير. أخروجنا منها زاي الحلم.

وتشرد بذاكرتها قليلاً...

... كان عند أبوي فرس أصيلة بيضاء يفاخر الجميع بها، كنت أحممها بيدي من العين. كانت الفرس مثل ولد من أولاده. «آه» (تقولها متنهدة)، مات أبوي وهو يقول: الأرض محلها ولازم نرجع لها، لكن الأصيلة ايش مصيرها؟

وتمسح بضع دمعات، وتكمل حديثها:

كان الله يرحمه يحبني كثير. مرة أصابني مرض شديد. ثاني يوم وقبل الفجر أركبني خلفه على الفرس وكان يسابق الريح، ومع طلوع الشمس كنا بحيفا. ذهبنا عند دار واحد من أقاربنا وتناولنا الفطور، وربط أبوي الفرس وأطعمها، ذهبنا بعدها إلى دكتور انكليزي، عالجني وقبل ما أطلع من عنده كنت مليحة. ذهبنا بعدها إلى السوق واشترى أبوي لي ولأخواتي الفساتين الزاهية، وحاجات الدار من السكر والشاي والأرز والسمنة. بعدها ذهبنا لشط البحر واشترينا السمك»الطازه» من الصيادين، سمك ما شاء الله من خير ربنا. وثاني يوم بعد ما استرحنا إحنا والفرس، رجعنا مع الفجر وكنا مع طلوع الشمس بالدار...
وتسكت هنيهة ثم تكمل:

أبوي علمني ركوب الخيل مثلي مثل أخوتي وأنا عمري ١٢ سنة. علمني الركوب لأنه شاف علاقتي بفرسه،

كنت دائما أساعده بغسيلها على العين وكنت أفرك شعرها الناعم بيدي. كانت أمي رحمها الله تقول: هذه بنت يا أبو عزت حرام تحملها أكثر من طاقتها، لكنه كان يجيبها: جميلة هذه ست البنات أخت الرجال. وتمسك رأسها بيديها، ويفيض من عينيها الدمع الأسود وتقول: «زمن غدّار».

الشيخوخة والأمراض داهمت أم محمد، ولم تعد يداها تقويان على طحن حجارة الاثمد الصلبة، والذي كان يسألها عن الكحل تقول: «خلاص ما عاد ساعدي يقدر على الطحن والتنخيل. وصبايا اليوم ما بتعرف قيمة الكحل الأصلي».

ذات يوم طلبت من ابنها أن يصطحبها لزيارة أقاربها بالفراديس وعبرت له عن اشتياقها لريحة البلاد؛ إلا أن ابنها قال لها معتذراً: «يا أمي في حواجز جيش، ما بسمحوا لأي أحد بالدخول يا ليتني أستطيع». كانت أم محمد تلوذ بالصمت عندما تسمع كلمة جيش وتقول: «الله يحميك يا ابني من أولاد الحرام».

اختفت أم محمد ذات يوم من الصباح الباكر. فقد استيقظت ابنتها ولم تجدها، فأيقظت إخوتها وأعلمتهم بالأمر. فعهدهم بها أنها لم تغادر منزلها قط بهذه الطريقة. ولم تنم خارج المنزل سوى مرة وحيدة حين ذهبت برفقة ابن خالها. كما أنها توقفت عن بيع الكحل ولم تعد تخرج إلا نادرا وبرفقة ابنتها. لم يتوانَ أبناؤها حتى انتشروا يطرقون أبواب الجيران فربما تكون عند أحد منهم.

قالت إحدى الجارات: «خوفي إنها ذهبت إلى الفراديس، منذ عدة أيام قالت لي أنها مشتاقة لأخوالها وأرض أبوها».

ضرب ابنها جبينه متذكراً ما أباحت له به منذ فترة. انطلق وراءها بسيارة عسى أن يلحق بها قبل أن تجتاز حاجز باقة الغربية، فمثلها من كبار السن لا يدقق بهم الجنود كثيراً. وصل ابنها الحاجز وسأل صاحب كشك يبيع القهوة والشاي للعمال واصفا له إياها.

تذكر بائع القهوة الجلبة التي أحدثتها امرأة بمواصفاتها. مما اضطر الجنود السماح لها بالعبور. أسرع ابنها إلى طريق التفافي من جهة قرية نزلة عيسى حتى يستطيع اللحاق بها، فقد خبر تلك الطرق كثيراً أثناء توجهه للعمل داخل الخط الأخضر. ولم يكن الجدار قد اكتمل بعد.

هناك بشوارع باقة الغربية كانت تجوب الشوارع تسأل عن سيارة تقلها إلى الفراديس. لاحظ سائقي التاكسيات اضطرابها فرفض أياً منهم حملها. خاصة انه لا توجد سيارات مباشرة حيث وجهتها.

عثر عليها ابنها بشارع الكراجات ولما رأته ابتسمت قائلة:

– كيف عرفت إني هنا يا ابني. رضاي عليك اتركني أذهب إلى أولاد خالي وأرض أبوي قبل ما أموت.

– سنذهب هناك يا أمي لكن الوقت غير ملائم. خايف نذهب هناك ويعود أخي من الغربة ولا يجدنا. سنذهب معاً حين يعود.

نظرت لابنها بعين الشك، إلا أنها أذعنت بالعودة معه.

لزمت أم محمد باب المنزل وبشكل شبه يومي طيلة أشهر عديدة منتظرة عودة ابنها وتسأل المارة ممن تعرفهم، صحيح الغُيّاب بدهم يعودوا. كان الجميع يشفق على حالها. و يجيبونها: «نعم سوف يعودون يا حاجة».

بقيت أم محمد بانتظار على أحرِّ من الجمر على أمل رؤية ابنها الغائب والعودة لموطنها، حتى أسلمت الروح.

لم تدفن آمال أم محمد بعد موتها، بل تركت تذكارا من الإثمد بعيون الكثير من الأجيال. إثمد يحمل أسراراً من سفوح الكرمل.

«... في جميع هذه القصص لم تكتمل فصول النهاية بعد، ما زال هناك من هو ينتظر، مات ودفن كثير من اللاجئين، بقي أبناؤهم وأحفادهم، دفنوا الأجداد ولم يدفنوا معهم الحلم الذي بقي حياً...»

